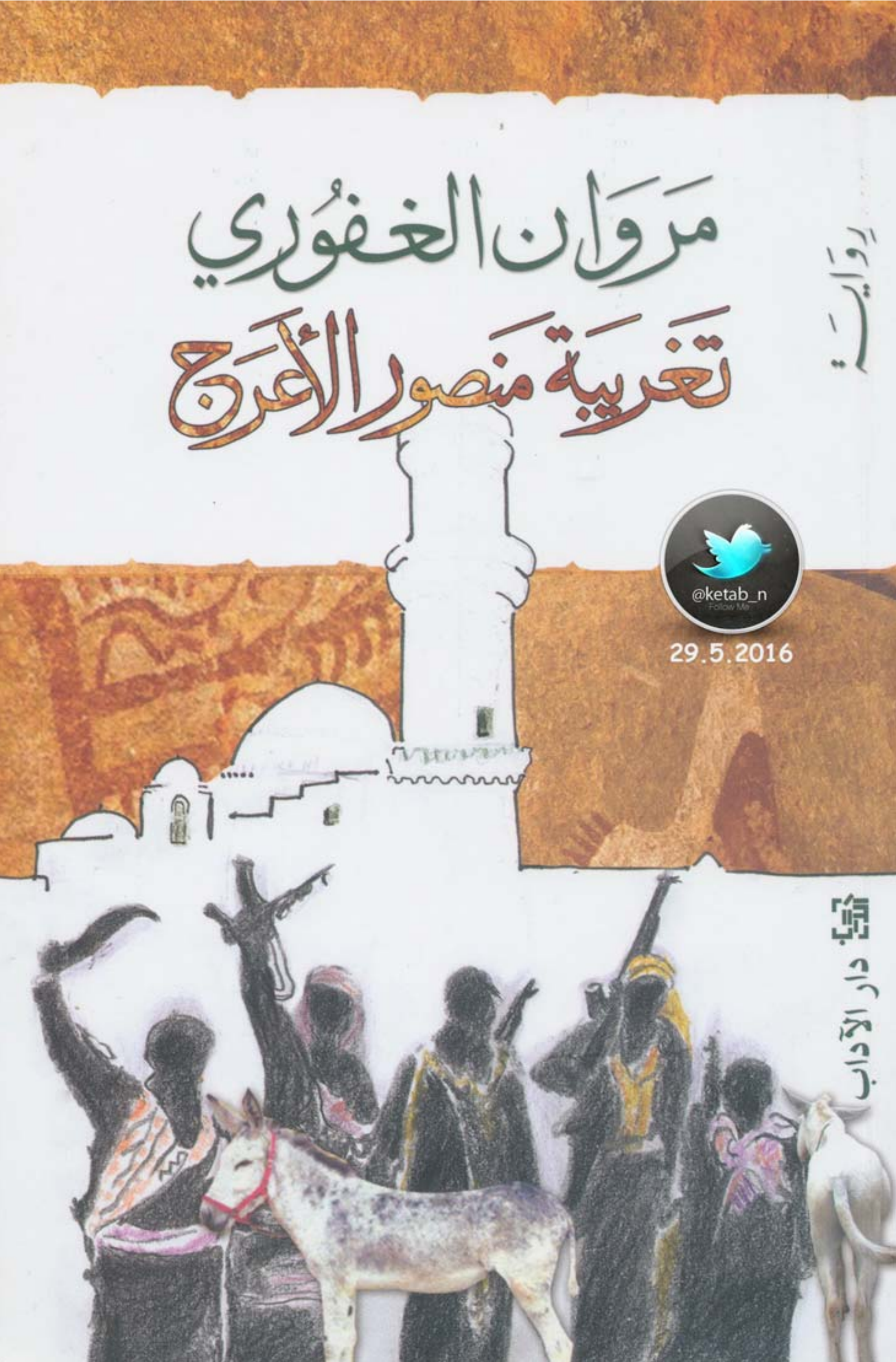
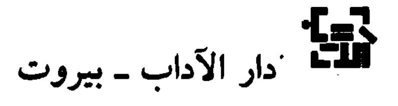

مروان الغفوري
تغريبة منصور الأعرج
رواية
@ketab_n
Follow Me
29.5.2016
دار الآداب

مروان الغفوري

تغريبة منصور الأعرج

رواية



دار الآداب ـ بيروت

تغريبة منصور الأعرج

تغريبة منصور الأعرج

مروان الغفوري / كاتب يمني

الطبعة الأولى عام 2015

ISBN 978-9953-89-495-9



دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 4123 ـ 11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)

(01) 795135

فاكس: 009611861633

e-mail: rana@daraladab.com

info@daraladab.com







/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

أرى ما أُريدُ من الليل، إنّي أرى
نهايات هذا الممرِّ الطويل على باب إحدى المُدُنْ.
سأرمي مُفكّرتي في مقاهي الرصيف،
سأجْلسُ هذا الغيابْ
على مقعد فوق إحدى السفُنْ.

محمود درويش

إلى أمّي

١

أغمض منصور الأعرج عينيه طويلاً ولم ينم. نادى بصوت خفيض على سبيل التجربة «صُهيب»، فقال الآخر: نعم.

قال منصور الأعرج لرفيقه إنّه لم ينم دقيقة واحدة حتى الآن. يقصد منذ الليلة الماضية أو مطلع تلك الليلة. كان المكان غارقًا في الظلام، فسمع منصور صوت حركة من الناحية الأخرى، حيثُ صُهَيْب السوائي. رفع صُهَيْب ذبالة الفانوس الموضوع بالقرب من رأسه، فامتلأت الغرفة رويدًا رويدًا بالضوء. كان الضوء يملأها كأنّه نهر من الماء. وكانت تمتلئ ببطء كأنّها مغارة، ولم يكن الرجلان يعرفان سرّ هذه الظاهرة. لا الرجلان ولا أحد. كان صُهَيْب يقول إنّ السرّ في الفانوس، ويعتقد منصور أنّ السرّ في القرية. ذلك البهو، حيث يناما، يُسمّى الدكّة، مقسوم إلى ضفّتين يمنى ويسرى وبينهما ممرٌّ يؤدّي إلى الباب الخارجي من جهة وإلى درَج السلّم الصاعد إلى الأعلى من الجهة الأخرى. وكانت الدكّة مرتفعة بعض الشيء عن الممرّ، وهذا ما جعلها مميّزة. وربّما كانت هذه الميزة هي التي منحت

القرية اسمها. توجد في الطابق الأرضي من دار قديم يتكوّن من ثلاثة أدوار ويرسو على أكمة مرتفعة تطلّ على طريق السيل.

القادم من بعيد، من جهة زبيد وتهامة، يرى قرية الدكّة على شكل سفينة. أمّا القادم من الناحية الأخرى، من الشرق ومن جهة الجبال، فيعتقد لوهلة أنّها سوق للجنّ.

«سُمّيت قرية الدكّة بهذا الاسم منذ مئات السنين، فقد كانت أوّل دكّة في الجزيرة العربيّة»، قال صُهَيْب لمنصور قبل عامين عندما قدم إليها ذلك الأخير من مكان بعيد. لا يصدِّق منصور أنّ الإنسان عاش قبل مئات السنين. لا يريد أن يصدِّق شيئًا، في الواقع.

أخرج صُهَيْب ساعة جوفيال نسائيّة من مكان ما بين ثيابه، وقرَّبها من زجاجة الفانوس. فتح غطاءها النحاسي، فبرزت بقعة بيضاء مخطَّطة. كانت ساعة نسائيّة يعلِّقها صُهَيْب على عنقه بخيط رفيع من القماش. لم يحدث أن سأله أحد كيف حصل عليها.

«الثالثة فجرًا. الثالثة إلّا عشر دقائق».

لم يبدِ منصور الأعرج جوابًا.

«قلتُ لك الساعة الثالثة فجرًا»، قال صُهَيْب وهو يحاول أن يستعيد نومه.

كان منصور يستمع لأزيز قادم من بعيد، أزيز الجراد الأحمر القادم من شرق أفريقيا. وكان الزمن ليلة من ليالي أغسطس من العام ١٩٨٠. يعرف منصور أسرار الجراد الأحمر المتشرِّد، ويستطيع أن يميِّز من نوع الموسيقى التي تصدر عن أسراب الجراد ما إذا كان قادمًا من البحر أو الصحراء.

«هل تسمع شيئًا»؟

مضى وقت على سؤال منصور قبل أن يردّ صُهَيْب على رفيقه بأنّه يسمع أشياء كثيرة مثل كلّ ليلة، وأنّه لا جديد في الخارج. بقي منصور صامتًا ومنصتًا، فبرزت أسنانه في ظلام الدكّة قليلاً. كان يبتسم. فتح صُهَيْب غطاء ساعته مرّة أخرى، فملأت الغرفة بتكّاتها.

«أسمع صفيرًا خفيفًا، أظنّها وزغة. بالأمس قتلتُ زوجها»، قال صُهَيْب.

كان صُهَيْب شابًّا في منتصف الثلاثينيّات من العمر. وكان يشرد طيلة الليل ويلهو بإصبع قدمه اليمنى الزائدة طيلة النهار. منذ حوالى أشهر هدأت المعارك في الجبل، لكن طرفي الحرب بقيا في أماكنهما، وقبل أيّام عادت من جديد. غير أنّها هذه المرّة صارت بعيدة عن قرية الدكّة، فقد خسر الماركسيُّون مناطق سيطرتهم، أخيرًا، وتقدّم الإسلاميُّون وكتائب الجيش خطوة إلى الأمام في اتّجاهي الشرق والجنوب.

أحسّ منصور برائحة موسيقى تتدفّق في عروقه، قال لنفسه إنّه يعرفها جيّدًا. لقد خبرها بالقرب من البحر قبل ذلك.

أزاح الملاءة الخشنة من على جسده النحيل، وتحسَّس طريقه إلى الممرّ بين الضفّتين. وفي العادة ينام، رجال الشيخ في غرف منفصلة عن داره. وفي الأشهر الأخيرة طلب من منصور وصُهَيْب، بشكل خاصّ، أن يناما في الدكّة، في الدار نفسها. «فلا أحد يضمن حياته في الحرب، ولا يمكن أن يتنبّأ بمفاجآتها حتى المُرسلين»، همس الشيخ طٰه أبو علي في أذن صُهَيْب، وكان قد استدعاه إلى غرفته الخاصّة في الدور الثالث. وذكر في ذلك المساء لصُهَيْب ثلاث قصص

لثلاثة أنبياء اتّخذوا حراسة، فقد كانوا خائفين. وعندما هبط صُهيب درجات الدار، لم يساوره شكّ في شجاعة شيخه، فحتى المُرسلون يختبئون وراء الحِراسة.

يجوز للرجلين، منصور وصُهَيْب، أن يعبرا ممرّ الدكّة فقط تجاه الخارج، لكنَّ منصور اتّخذ تلك الليلة الاتّجاه الآخر، وصعد درجات السلّم إلى الأعلى. ارتبك صُهَيْب وغمرته قشعريرة أوّلاً، ثم انتصبت كلّ شعرة في جسده وفقد القدرة على الحديث. تطوّرت قشعريرة الرجل إلى هلع، ثم فقد القدرة على الحركة. يعرف صُهَيْب إحساسه الخاصّ هذا عندما تنتصب شعرات عنقه من الخلف. قبل أشهر، وكانت المعارك على أشدّها بالقرب من مخلاف بني مُسلِم في وصاب العالي، ضربه منصور على عنقه بخفّة، ونهره: «أشعر بالخوف فقط عندما يقف شعر عنقك. أنت مثل الديك».

قال صُهَيْب «بل مثل جدّي».

بعد يوم، عاد الرجلان إلى قرية الدكّة بشكل منفصل. وعندما التقيا؛ تذكَّر صُهَيْب ما حدث في اشتباكات الليلة الماضية، فبحث عن منصور. وجده يتبوّل واقفًا جوار المسجد من الناحية المطلّة على طريق السيل. وعندما رآه، سأله بتوتُّر «وكيف عرفت أنّ شعر عنقي وقف البارحة»؟ قال منصور إنّه أدرك ذلك من خلال الرائحة. كان يتحدّث وهو يمسح فتحة عضوه بحجرة صغيرة صلتها شمس أغسطس الجبليّة. أمّا صُهَيْب، فكان قد أعطى الرجل ظهره، وذهب يغمغم «أنت رجل لا تستحي».

يعمل الرجلان لدى شيخ متديّن، انضمّ في السنوات الأخيرة إلى الحرب، ووقف في صفّ الجبهة الإسلاميّة المساندة للنظام الحاكم،

ثم صار قائدًا لما بات يُعرف بالجبهة الإسلاميّة في تلك المناطق. اقتسمت الجبهتان، الإسلاميّة والقوميّة، الجبال في مناطق اليمن الأوسط. كانت الجبهة القوميّة أكثر حظًّا، فقد حصلت على أكثر الجبال ارتفاعًا، وكان جبل شَخَبْ عمّار الموجود في أعالي محافظة إب عاصمة الجبال كلّها، يطلّ على عشرات القرى والمدن، يغمره السحاب في أغلب شهور الخريف والشتاء. كان مقاتلو الجبهة الإسلاميّة يقولون إنّ الآخرين شيوعيُّون، وإنّه لا يوجد سبب غير ذلك يدعو لمقاتلتهم. وكانت أعدادهم تتزايد. كانوا ماركسيين في نظر أنفسهم وشيوعيين في نظر الآخرين. ولم يكن من أحد، في ذلك الزمن، يدرك الفرق بين الشيوعيّة والماركسيّة. أمّا منصور القادم من البحر، فكان يقول من آن لآخر، عندما يجد في نفسه الرغبة لقول شيء ما، إنّ ذلك قد لا يكون صحيحًا ولكنّه سيقاتلهم على كلّ حال، فقد فعلوا ما يستحقّ القتال من وجهة نظره.

«يسكنون في أعالي الجبال مع النسور، ولا بدّ أنّهم يرون الله أفضل منّا».

في وقت قصير، استطاعت الجبهة القوميّة السيطرة على مساحة واسعة من مديريّات وجبال شمال اليمن، ووجد النظام الحاكم نفسه محاطًا بأكثر المخاطر جدِّيَّة. وفي جبال اليمن، على مرّ العصور، من يعلن الحرب أوّلاً يكسب المعركة. وكانت الجبهة قد بدأت الحرب.

لم يكن صُهَيْب، ذو الإصبع الزائدة في قدمه اليمنى، قد غادر قطّ قرية الدكّة إلى أماكن بعيدة باستثناء مرّة واحدة. ومع ذلك، فقد كان يؤمن بوجود العالم الخارجي، وأنّ أوّل دكّة في الجزيرة هي التي ينام عليها. وعندما سأل منصور عمّا يجري خارج الوصابين، وصاب العليا ووصاب السفلى، لم يدر منصور كيف يشرح له العالم. ثم اهتدى

منصور إلى إجابة غمرت صُهَيْبًا بالرهبة والنشوة معًا «إذا أعطيت ظهرك لوصاب ومضيتَ غربًا ستجد البحر بعد ليلة أو ليلتين».

ولم يسأله صُهَيْب عن أيّ اتّجاه يتحدّث، وربّما اعتقد أنّ هذا السؤال لا قيمة له، فالبحر عظيم جدًّا لدرجة أنّ المرء سيجده أيًّا كان الدرب الذي سيسلكه، وأنّه على بعد ليلة أو ليلتين. لكنّه، على كلّ حال، كان يعرف أنّ خلف سهول تهامة يوجد بحر. قدِم من جبل في إبْ، وصار حارسًا لشيخ. وعندما تناهى لسمعه، إبّان الحرب، أنّ الجبهة القوميّة سيطرت على مسقط رأسه أحسّ بذلٍّ عميق. وصادف أن سأله منصور، ولم يكن قد مضى على مقدمه سوى أسابيع، عن الأرض التي جاء منها، فقال بخشوع غريب وسكينة لا تخطئها العين «ولدت في مديريّة خسرت الحرب، وشيخ قريتي أسير».

في تلك الليلة، وبينما كانت كلّ شعرة في عنق صُهَيْب تقف هلعًا، كان منصور يخطو في الاتّجاه الخطأ ويجتاز دار الشيخ طٰه أبو علي، شيخ المجاهدين في قرية الدكّة والقرى القريبة. صعد منصور حتى السطح ووقف إلى الجهة التي تطلّ على طريق السيل، الجهة الغربيّة. أفرد ذراعيه وتنفّس بعمق، فسمع دبيب الجراد الأحمر في الوديان وفي رئتيه.

في ليل قرية الدكّة الهادئ والبارد، تنفّس منصور رائحة الليل كلّها. كان نحيلاً وبه عرجة في قدمه اليسرى. عند مقدمه كان يرتدي ملابس أهل البحر، ومنذ عام ونصف العام تقريبًا كان قد أصبح يرتدي ملابس الجبل، وصار شبيهًا بكلّ الناس في قرية الدكّة: ثوب طويل، وكوت بنّي اللون وجنبيّة على الخصر. بقيت عرجته مشعّة، تكشف مكانه بين مئات الناس، فلا يمكن لعرجة مثل عرجته أن يخفيها زيّ بحّار أو راعٍ في جبل. وكان يبلغ من العمر زهاء الأربعين عامًا. كانت

جنبيّته بلا نصل حديدي. ولم يكن من أحد، من الذين رآهم، يلبس جنبيّة بلا نصل سواه، وهكذا كان يحسّ بالطمأنينة.

تسمّر في مكانه فجأة، وتجمّدت الأنفاس في حنجرته وهبط الدم إلى أعماقه وكان له دويّ رهيب.

فمن خلال الباب المؤدّي إلى السطح، سمع أصواتًا خفيفة مختلطة كأنّها لرجل، كأنّها لامرأة، كأنّها للإثنين معًا، أو لرجل وامرأتين. لم يفكّر منصور في تلك الساعة سوى بالمأزق الذي هو فيه. فقد سمح لنفسه أن يصعد إلى الأماكن التي تعتبر بالنسبة للغريب شديدة الحُرْمة. فكّر بتسلُّق الجدار إلى الأرض. كان ذلك، عمليًّا، ممكنًا لو أنّ الوقت لم يكن ليلاً، ولو لم تكن موسيقى الجراد قد أسكرت الرجل قليلاً وطوّحته لبعض الوقت. اتّخذ الحلّ الأمثل، ممتلئًا بالرهبة والجزع. ترك الجهة الغربيّة المطلّة على طريق السيل والبحر والجراد، واتّجه إلى الباب. بينما كان يجتاز الدور الثالث ويهبط يمينًا بعض الدرجات، سمع صوت ذكرى. ولم تكن ذكرى سوى العروس الصغيرة للشيخ طٰه أبو علي. كانت جميلة وخفيفة السمار وبها بقعة بيضاء على فخذها الأيمن من الخلف، وقد رأى منصور تلك البقعة في مصادفة خاصّة يحاول نسيانها. قيل لها إنّها علامة برص، ممّا أثار فضولها أكثر من خوفها، غير أنّها لم تر قطّ تلك البقعة.

«ارقدي على بطنك وضعي يديك حول رأسك مثل الأسيرة، وسأصبّ على خصرك قطرات من العسل. وأنتِ ارقدي على ظهرك إلى جوارها. ضعي يديكِ على بطنك مثل الجريحة. سأضع قطرات من عطر العود على سرّتك».

لا يمكن للمرء أن يصف بالضبط ما الذي حدث لمنصور الأعرج عندما داهمته تلك الكلمات. ليس لأنّه كان يعشو في الظلام وحسب، بل لأسباب كثيرة أقلّها لأنّه قادم من البحر. كأنّه انهار فجأة، أو كأنّ برقًا ليليًّا حادًّا ضربه خلسةً فأحرق ثوبه الأزرق ونعليه الأسودين وترك جفْر جنبيّته شاهدًا عليه.

هبط منصور بسرعة، بسرعة. لم يعد يأبه بما إذا كانوا سيعلمون بخطيئته. ثمّة في الأعلى خطيئة أكثر وحشيّة، كان يجادل ذاته وهو ينهب الدرجات ويتعثّر.

في الدكّة، وجد الفانوس مضاء، وصُهَيْب منتظرًا.

«أنت مجنون ووقح»، قال صُهَيْب مشيرًا بأصبعه اليسرى إلى صدر رفيقه، وبيده اليمنى كان ممسكًا بندقيّته التشيكيّة طويلة الماسورة من منتصفها، وكان قد هجرها مؤخّرًا بعد حصوله على كلاشينكوف. لم يقل منصور شيئًا. التقط أنفاسه خمس إلى سبع مرّات ثم غادر الدكّة إلى هواء الخارج.

كان نصف قمر في الأعلى، وكانت القرية تحت ضوئه البعيد الباهت، فرأى منصور طريقه إلى غرفة واسعة بعض الشيء ملحقة بالدار تستخدم كمخزن للمؤن أو السلاح ولنوم المسلّحين والحرّاس. وكان هناك أكثر من غرفة على تلك الصورة. في تلك الساعات، لم يكن أحد يشعر بالبرد مثل منصور وذكرى، فقد كانت عارية وكان طٰه يضع قطرات عسل بارد على خصرها، وربّما سالت إلى الأسفل قليلاً، إلى الجوانب.

«إلى الجوانب، لا بأس»، قال منصور لنفسه وهو يستخرج لغمًا روسيًّا من النوع بي أم أن من المخزن. لم يكُن يشعر بالغيرة، كان

واقعًا تحت خليط متناقض من المشاعر، وعلى رأس مشاعره تلك، داهمه إحساس حادّ بأنّه خان رفيقًا بعيدًا وتركه يهوي. وبدا له الرجل الذي كان يصبّ قطرات عسل على خصر فتاة يحبّها صديقه كما لو أنّه كان يصبّ عسلاً على مؤخّرة صديقه نفسه. وماعت نفسُه، وملأه الدوار والغضب. أحسّ في تلك الساعات بطعم الليل، ليل الجبل القاسي الذي لا تنبح الكلاب في منتصفه.

قبل عامين، قاد الطريقُ منصور إلى قرية الدكّة، ولم يكن لوحده عندما دخلها. ومنذ نحو عامين، عمل في زراعة الألغام وحملها. لقد زرع الكثير منها، ولم يكن حزينًا لذلك ولا سعيدًا. كان كلّ شيء بالنسبة لمنصور مسطّحًا، كلّ شيء، إلّا ذكرى التي سمع غنجها قبل قليل. غنجها أو ألمها، فهي لم تكن مسطّحة وإلّا لما سالت قطرات العسل إلى الجوانب. لم تكن ذكرى مسطّحة، أبدًا. ولم يكن يعلم في تلك الساعات حقيقة مشاعره، وما إذا كانت غضبًا لأجل صديقه أم لأجله هو.

حاول منصور، وقد أصبح منزل الشيخ الآن إلى الخلف منه، أن يمنع قطرة العسل من أن تسيل إلى الجزء الأسفل من جسد ذكرى. كان يحاول دفعها إلى الجوانب بكلّ قوّته، أو بما تبقّى له من قوّة.

في الأكمة القريبة من منزل الشيخ طٰه أبو علي، جلس منصور على حجرٍ مسطّح واضعًا اللغم إلى جواره، وسالت دمعتان صغيرتان من عينيه، وتدفّق كلّ الماضي في صدره. كان القمر، نصف القمر، يضربه بشعاعه، ولم يكن يسمع من حسّ. حتى الجراد لم يعد يهدر.

لم يدر كم مضى من الزمن، ربّما ليس الكثير. ولم يدر كم بقي من الوقت حتى الشروق، ربّما ليس القليل.

سمع صوتًا «بفووووبفوووو» فاعتقد أنّه صوت حمار أو رجلٍ هارب. تراجع إلى الخلف قليلاً، وكمن في الظلّ واقفًا كأنّه شجرة. إنّه حمار، حدَّث نفسه. دون أدنى تفكير، ذهب منصور إلى اللغم، وكان قطره عشرة سنتيمترات ولونه خليط من الرمادي والأخضر. ألقى بحجر صغير في اتّجاه الحمار فتوقّف في مكانه ورفع رأسه وحرَّكه يمنة ويسرة. حفر الرجل حفرة صغيرة وزرع فيها اللغم الروسي ثم غطّاها بالتراب. كان طريقًا ترابيًّا ضيّقًا يطلّ على هاوية، كعادة سكك السير في الجبل. لكنَّ منصور لم يهرب إلى طريق عاديّ. فقد دفعته قطرات العسل فوق ذكرى، وسرّة الزوجة الثانية التي لا يعرف اسمها، إلى أكمة تطلّ على هاوية. فلا ينبغي لرجل تائه لم يمسّ امرأة منذ زمن بعيد أن يفرّ في ساعة كتلك الساعة سوى إلى مكان يطلّ على هاوية. في الأسفل، وذلك الأسفل بعيد جدًّا، يوجد طريق السيل. من هناك، قدم منصور قبل عامين. ولا ندري لماذا بدا منصور متأكّدًا من أنّ المرأة التي سيصبّ الشيخ على خصرها العسل هي ذكرى، وليست الزوجة الأخرى. ولمجرّد أن تذكّر أنّ لذكرى بقعة ملوّنة على فخذها من الخلف، فقد زاد يقينه أنّها هي، وأنّ الشيخ يحبّ أن يفردها على بطنها ليتلهّى بذلك المنظر من الأعلى. وهو منظر بديع على كلّ حال يمكن رؤيته حتى في أشدّ الليالي حلكة، وقد رآه منصور في مصادفة ما، وكان أكثر جلالاً من رؤية اليابسة من البحر لأوّل مرّة.

اختبأ منصور خلف الأكمة من الناحية المطلّة على قرية العين، القرية التي كانت بها عين ماء كبيرة قبل مئات السنين، وسيطرت عليها الجبهة القوميّة. . ثم اندحرت رويدًا. دوَّى انفجار هائل تلاه بعد ثوان وابل من الرصاص والانفجارات في عشرات الجبال. كما لو أنّ الانفجار أيقظ عشرات النائمين في كمائنهم وعلى أسطح منازلهم.

في ليل أغسطس الصافي، وضوء نصف القمر البارد، أحسّ كلّ مسلّح بأنّه شخصيًّا داس على اللغم. كان لغمًا لكلّ الناس، أراد من خلاله منصور، ربّما، أن يمنع خيط العسل الصغير من أن يشقّ طريقه بين ردفي عروس سمراء جميلة ذات بقعة بيضاء على فخذها من الخلف، امرأة أحبّها رجل كان يعمل في البحر وذهبت لآخر يملك الجبل.

هدأت الأصوات وبقيت العيون مسرجة.

تسلّل منصور إلى مكان الانفجار، كانت جثّة الحمار قد طارت إلى السماء ثم هبطت في المنحدر. نزل صمت مهيب على الأماكن كلّها، فسمع منصور الأعرج أصوات الديكة قادمة من مكان بعيد.

وعلى جانب الطريق المطلّ على المنحدر، أبصر منصور واحدة من سيقان الحمار، خمّن أنّها الأماميّة اليمنى. أمسكها بكلتا يديه، وهزّها قليلاً، كما لو كان يتوعَّد الليلَ أو الجبهة القوميّة، أو الشيخ طٰه أبو علي، أو ذكرى. أو كأنّه كان يسأل عمّا ساقه إلى هذا المكان. تأمّل المنحدر. كان خليطًا من الظلال والنور الخفيف، وكان بعيدًا ومذهلاً.

قبّل حافر الحمار بعمق، مغمضًا عينيه، كما لو كان يعتذر، ثم أبعده عن شفتيه وتأمّله بمزيج من الشفقة والجلال، وهمس فيه شاردًا:

«مع الله يا طاهر القدمين».

ثم بكلّ قوّته، رمى بساق الحمار إلى أبعد مكان في اتّجاه البحر، فسقط في الهاوية.

٢

تشرف قرية الحاجّ على عشرات القُرى وتطلّ على البحر الأحمر من بعيد. على سقف «جبلْ حبشي» في تعِز، تجلسُ القرية، يحدّها السحاب من الأعلى والفراغ من جهاتها الأخرى. الجبل الحبشي أقلّ ارتفاعًا من جبل صبِر، والأخير جبل كبير وممتدّ في سماء تعِز ينتهي فجأة من جهته الغربيّة إلى وادٍ صغير اسمُه وادي الضباب. من أطراف وادي الضباب تبتدئ حدود الجبل الحبشي في اتّجاه الغرب. يواصل الجبل امتداده في اتّجاه الشمس النازلة والبحر. ما إن يجد المرء رائحة البحر حتى ينتهي جبلْ حَبَشِي على نحو محزن، وتنهض بهجة المحيطات.

لا يعرف أحد، ولا حتى منصور الأعرج، من هو الحبشي الذي يحمل الجبل اسمَه. سمع أكثر من مرّة كهولاً يقولون إنّ اسم الجبل غُيّر أكثر من مرّة في الماضي وقبل مئات السنين ولأسباب مختلفة. يريد منصور أن يصدِّق أشياء كثيرة إلّا تلك الأمور التي تتحدّث عن ما قبل مئات السنين. ولكن كيف يجرؤ رجلٌ نحيلٌ على أن يمنح الجبل

اسمًا؟ لا يوجد من حبشيّ واحد ولا وحيد على ظهر الجبل، ومن غير الممكن أن يكون جبلاً مهاجرًا. ربّما جلب الأحباش فيلة، يومًا ما، ودخلوا الأراضي اليمنيّة عبر البحر. لكنّ الوديان هي التي تخلق الجبال، وتسمّيها. لم يكن جبلاً أسود اللون، ولا أجعد الشعر، ولا خائفًا. وكبقيّة الجبال التي خبرها منصور الأعرج، والتي سيتيه فيها، كان الجبل الحبشي ممشوقًا ووقورًا. وكان يعجّ بالقرى والمقابر.

في العام ١٩٦٢، في ليلة مقمرة من ليالي شهر شعبان، قدِم منصور الأعرج إلى قرية الحاجّ. قبل عشرات السنين كان اسمها قرية الحاجّ إبراهيم. وقبل مئات السنين كان اسمها مكتملاً «قرية الحاجّ إبراهيم بن الحاجّ إبراهيم». وكان الحاجّ إبراهيم الأب أوّل رجلٍ بنى منارة لمسجد على قمّة جبل. وكان ابنه إبراهيم، قبل مئات السنين، يتسلّق المنارة ويؤذّن بصوت رائع ومخيف. وذات مرّة في الشتاء، صعد إبراهيم الابن ليؤذّن لصلاة المغرب، وكانت القرية مغمورة بالضباب منذ أيّام، فسقط من أعلى المنارة على سطح المسجد، وانكسرت عنقه ومات دون أن يفقد قطرة من الدم. عُثر على جثّته بعد أيّام، ولم تكن قد تعفّنت بفعل الصقيع والسحاب وبَركَة المصلّين وبرَكَة والده الحاجّ إبراهيم، فنال لقب الحاجّ ولم يكبر بعد ذلك أبدًا ولم يحجّ البيت. لكنَّ روحه في تلك العشيّة فاضت على القرية وغمرتها، فانقشع الغمام منذ صبيحة اليوم التالي، واستطاع السكّان رؤية جبل صبر إلى الشرق البعيد، وتنفّسوا رائحة ميناء المخا والبحر.

وبعد أيّام قليلة، طلعت نباتات صغيرة ذات لون أصفر على السطح الترابي للمسجد، فأطلق عليها اسم «زهور الحاجّ». وكان لا بدّ أن تكون صفراء، فالحاجّ إبراهيم الابن كان يستحقّ كلّ ذلك التأبين، وكان وديعًا ونقيًّا وحتى بعد وفاته لم يعثروا له قطّ على حبيبة.

منذ مئات السنين، ينتظر سكّان قرية الحاجّ موسم زهور الحاجّ ولا تأتي إلّا في الشتاء. وعندما قدم منصور الأعرج في ليلة مقمرة من ليالي شعبان إلى قرية الحاجّ، كان ذلك في فصل الشتاء. لم تمرّ سوى أيّام قليلة حتى كان منصور الأعرج يؤذّن في مسجد القرية بصوت شاحب وجميل يشبه أزيزًا في مغارة. وعندما طُرح على إمام المسجد فكرة أن يصعد على المنارة ليؤذّن، فالناس لا تسمع الأذان في البَرْد بسهولة، قال له الإمام إنّها فكرة مرعبة ومخيفة وأنّ زهور الحاجّ تشهد على ذلك. لكنّ القصّة التي سمعها منصور عن وفاة إبراهيم الابن قبل مئات السنين لم تكن مقنعة، فهو لا يصدّق أنّ الإنسان عاش قبل مئات السنين.

في مكان بعيد عن قرية الحاجّ، تحديدًا في السهل، وُلد منصور الأعرج. كان اسمُه الكامل: منصور بن قاسم بن عبد الغني الحكيم. وعندما اكتشفوا عرجته، حدث ذلك عندما كان يبلغ من العمر ١١ شهرًا، قالوا إنّه أعرج وربّما كان مسخوطًا، فالعرج من الشيطان. وقالت أمّه إنّه غنج الأطفال، وأنّها لم تنس قطّ الأدعية المأثورة قبل أن تنام مع زوجها. لم يخالجها الشكّ قطّ في أنّ ابنها سليم. حتى عندما قالت لها امرأة مسنّة وذات حكمة «الأمر لا علاقة له بالأدعية المأثورة، فهناك نساء صالحات ولدن أطفالاً مسخوطين»، قالت السيّدة غزلان ابنة أحمد الحرق إنّ هذه القصّة لا تعنيها، فالله قد يتخلّى عن الصالحين لكنّه لا يخذل المساكين.

تراكمت الشهور على منصور بعد ذلك وبانت عرجته أكثر فأكثر. كانت أمّه تلاطفه في الليل «بحول الله منصور، يا منصور»، وكان زوجها ينادي عليها بصوت غليظ من غرفته «نام الأعرج؟». كانت تهدهده قليلاً وسرعان ما ينام، وكانت عيناها تسيّجانه في نومه وتحرسان عرجته. وفي ليلة، عندما كان منصور قد جمَع حوالى ٢٠

شهرًا، غطّته أمّه وسحبت نفسها إلى زوجها. ناداها للمرّة الثانية «نام الأعرج؟» ولم يسمع من جواب سوى «ششششششش». كان قاسم الحكيم نصف عارٍ، مستلقيًا على ملاءة خشنة على الأرض، ليس تحته من فراش. وكانت أرضيّة غرفته ترابيّة ورطبة، ولم يكن منزل الرجل سوى غرفتين ضيّقتين وخلاء صغير، وكان سقف المنزل من أخشاب شجرة السدر وسعف النخيل والطين. سحب قاسم الشابّة غزلان، فتناثرت أمامه كأنّها كيس من حبّات الذرة الشاميّة. وكانت تبلغ ١٩ عامًا وكان منصور طفلها الأوّل. وبينما كان قاسم الحكيم ينزع، بفظاظة وعجل، سروالها القماشي عنّابي اللون، أمسكت بيده متوسّلة إليه بسرّها الذي كان يبحث عنه في الأسفل «أرجوك لا تقُل عن منصور إنّه أعرج». منحها قاسم ابتسامة رطبة وهشّة وباردة، فظهرت أسنانه السوداء وفاضت من فمه رائحة دبقة خُيّل للشابّة غزلان أنّها تسبّبت في هجرة كلّ طيور قرية حذران. شهقت غزلان مرّة أو مرّتين، فوضع قاسم يده على فمها واستمرّ في الصعود والهبوط عليها كما لو كان يستخرج طينًا من بئرٍ قديمة. أرادت أن تئنّ، أو تصرخ، لكنَّ قاسم أغلق فمها. كان شعرها ناعمًا وطويلاً، وكان قاسم يتعمّد أن يغطّي وجهها بشعرها لكي يخفي ملامح وجهه عن عينيها. لطالما اعتقد قاسم أنّه ما إن يغرق بين فخذي غزلان حتى تصبح ملامحه شبيهة بعجل الشيخ. وكان عجل الشيخ هو العجل الوحيد في قرية حذران من يملك الحقّ الكامل في الصعود على مؤخّرات الأبقار الشابّة أمام أهل القرية.

ومنذ الأيّام الأولى للحياة في حذران، ولا يعرف أحد متى بدأت تلك الأيّام على وجه التحديد، يعتقد أهل حذران أنّ فحولة حيواناتهم تعبّر عن فحولتهم. فإذا سقمت العجول في الخريف تقلّ المواليد في

العام المقبل. مع الزمن تشكّلت أعراف حذران، وفي المركز منها حُظر ممارسة البهيمة للسفاح خارج المنزل، فقد أوشك ثور وبقرة أن يجلبا الجنّ إلى البئر. استثني من ذلك مواشي الشيخ. كان الشيخ يجلب الثيران القويّة من الأماكن البعيدة، ومن ميناء المخا البعيد. . وسرعان ما يبدّلها لمجرّد أن يلمح وهنًا خفيفًا في أدائها. وفي أحيان كثيرة، يطلّ الشيخ من غرفته العالية، في الدور الثالث، ليشاهد عجوله ويستعرضها. لم يكن لديه من شرطة ولا أسلحة، كان فقط يستعرض عجوله، وكان ذلك كافيًا لبثّ السكينة والخوف في قرية حذران، وما جاورها.

لم تر غزلان ابنة أحمد الحرِق وجه زوجها وهو يصعد عليها، قطّ. أمّا هو، فكان يرفع ذبالة الفانوس ليحصل على ما يكفي من الضوء ثم يمتطيها. كان يمتطيها، وأحيانًا يصفعها، وفي مرّات قليلة يزأر بكلّ صوته الوحشيّ الضخم، فتردّ عليه الكلاب من الخارج بالنباح والعواء.

في تلك الليلة، عندما صاح بها هل نام الأعرج، هبط قاسم من على صهوة غزلان أخيرًا، واستلقى إلى جوارها مغلقًا عينيه وفاغرًا فاه. هدأت أنفاسه ببطء. كانت غزلان تفكّر بأمر آخر، فقد نبحت الكلاب مرّة أخرى. أصبحت تخجل من الكلاب بسبب زوجها. ودون أن ينظر إليها، قال قاسم بصوت متقطّع ولاهث: «هيّا، قومي، اذهبي إلى ابنك الأعرج».

لملمت نفسها، وسحبت فستانها لتغطّي فخذيها الضامرين، ولم تعاتبه مرّة أخرى. «لا جدوى من معاتبة قاسم» حدَّثت نفسها، وغرقت جوار الأعرج في سكينته حتى صاحت الديكة.

لم تردّد غزلان في تلك الليلة الأدعية المأثورة قبل الجماع. حلمتْ

أنّ الشيطان دخل بها، وأنّه كان يعتليها، وكان يصرخ، ولكنّ الكلاب لم ترُدّ عليه كما تفعل مع زوجها بل فرّت إلى الضفّة الأخرى من قرية حذران، حيث عجول الشيخ. شعرت بالكدر أوّل الأمر، ثم تقلّبت في نومها بقلق من جهة إلى أخرى كأنّها كانت تحاول أن تلقي بنفسها من شاهق. في الصباح، كانت تمسح على جبين منصور، وكان يحكّ ساقه بقوّة، بينما هي شاردة. «ما الفرق، كلّهم شياطين، كلّهم» قالت لنفسها، وخرجت إلى الشمس مصطحبة الأعرج ذا العشرين شهرًا.

نصحتها أمّها قبل شهور قليلة «عالجي منصور بالشمس». ومنذ ذلك الحين وهي تفترش الأرض أمام منزلها من الضحى حتى الظهيرة، تعرّي الجزء الأسفل من جسد طفلها منصور وتعرّضه للشمس مقلوبًا على بطنه.

مع الأيّام، أصبحت عرجة منصور أكثر وضوحًا، فدبّ الغضب والهلع في قلب غزلان ولم تعُد تُرى بين الضحى والظهيرة أمام منزلها، بينما أخذ اللون الأسمر في التلاشي من على مؤخّرة الطفل وفخذيه. بقيت السمرة على ساقيه حتى الأبد.

«كان ساقاك أكثر احتفاظًا بالشمس»، قالت له أمّه في صباه.

«ستحملك ساقاك في الجبال مثل الصالحين»، قالت له مطمئنّة عندما اشتكى قدمه الضعيفة، لأوّل مرّة.

ومثل أمّه، اعتقد منصور أنّ تلك الشمس القرويّة القديمة التي كانت تضرب مؤخّرته بين الضحى والظهيرة ثبّتت عرجته بحرارتها كما تفعل مع الصلصال والخزف، ومنحته الثقة بقدميه بعد ذلك.

ومثل نبيٍّ مهزوم، سيطوف منصور السهل والجبل والبحر بحثًا عن تلك الأشياء التي لا يفهم كنهها.

٣

في السابع من أبريل، ١٩٥٥، وكان يوافق الرابع عشر من شهر شعبان لسنة ١٣٧٤، ترك منصور الأعرج قرية حذران إلى الخلف من ظهره وتبع الغَيل، وكان نهرًا صغيرًا.

بعد نهار كامل، وقف منصور بين جبلين: الحبشي إلى يمينه وجبل صبر إلى شماله، ولم يجد العين التي يخرج منها الغيل. تاه منه النهر القديم بين الجبال والأشجار، وغمرته الدلجة قليلاً. فالشمس التي كانت لا تزال تضرب وادي الملك في تلك الساعة، هناك عند البحر، كانت قد غابت عن الوادي حيث يقف منصور الأعرج الآن. قال له قلبه اتّبع الغيل، وكانت الأمطار قد غمرت الجبال والوادي في تلك الأيّام. كانت أيّامًا مباركة، وكان لذلك الكثير من التفسير. تدفّق النهر بكثافة حتى استطاع أن يصل إلى أراضي حذران قاطعًا مسافة كبيرة تزيد عن عشرين كيلو مترًا. يقول المسنّون في حذران إنّهم لم يروا النهر في أراضيهم إلّا مرّات قليلة، وكانت هذه المرّة هي الأكثر بهجة. كانت آخر مرّة رأوه فيها قبل سبع سنوات، في العام ١٩٤٨،

عندما قُتل الإمام يحيى حميد الدين في صنعاء، وكان يحكم اليمن منذ سنين طويلة، أي منذ هزيمة الأتراك وفرارهم بالسفن عبر عدن. سمع منصور حكايتين تتحدَّثان عن عودة النهر، لكنّ الحيرة لم تضربه، وقلّما يحتاج الأعرج.

غمر النهر حذران عندما قُتل الإمام يحيى في صنعاء، كانت هذه العبارة هي التي نسيها فيما بعد. أمّا الكلمات التي تذكّرها دائمًا ولم يفهمها، فكانت تقول «منذ قتل الإمام يحيى في صنعاء لم يعد النهر يصل إلى أرض حذران، ولا إلى وادي الضباب. غاب النهر مع الملِك». في تلك السنة، ١٩٥٥، رأت حذران النهر من جديد، وشُوهد ظهر منصور الأعرج كاملاً ومنمنمًا وهو يتبع النهر إلى الأعلى.

في اليوم السابق، في السادس من أبريل، اصطحب شيخ حذران وفدًا من القرية ودخل مدينة تعِز. ساروا على الأقدام لساعتين، وفي تمام التاسعة صباحًا كانوا قد دخلوا ميدان الإعدام مع حشود ضخمة من الناس جاءت من كلّ الأماكن. كان منصور الأعرج أسرعهم، وكان في الثامنة عشرة من عُمره، وكان يسبقهم. سار الشيخ في المقدِّمة وهو يحمل بندقيّة طويلة على كتفه. من بين أكثر من ثلاثين شخصًا دخلوا مدينة تعِز بصحبة شيخ حذران، كان حوالى خمسة أشخاص يحملون بندقيّة، ولم يكن مسموحًا لأحد أن يجتاز الشيخ. أمّا منصور، فسُمح له أن يكون في الصفوف الأخيرة. بعد ساعة من حذران، كان الموكب يقترب من مدينة تعِز قاطعًا نصف المسافة، فأشار الشيخ بيده. جلس تحت شجرة سدر كبيرة، وشرب قليلاً من الماء وبقي الآخرون واقفين، وكانوا مبتهجين.

«سيَقطع رقبة الثلايا فقط، يا شيخ، أم رقابهم كلّهم؟» سأله رجل بدين بصوت خشبيّ أكلته شمس الصباح. كانت أصواتهم مختلطة،

لكنّ البدين غلب كلّ الأصوات، وجاء الدور على الشيخ، فتحدّث واختفت كلماتهم.

«جنون. ما فعلوه ليس سوى جنون. يحاصرون بنات النبيّ في القصر، ويعضّون اليد التي أحسنت إليهم. جنون، كلّ هذا جنون بل خسّة. ماذا سيفعل لهم الأمير الحسن في صنعاء. لم يفكّر حتى بزيارة تعِز ولا يعرف أين هي تعِز. وحتى الأمير عبد الله هذا الذي نصّبوه إمامًا. ما الذي سيجعل عبد الله أفضل من الإمام أحمد؟ جنون. من يتآمر على أخيه سيتآمر على جاره، ومن يتآمر على جاره سيتآمر على سائر الناس».

كان يسأل ويجيب، ثم يشرب قليلاً من الماء بآنيّة نحاسيّة حملها مرافقوه مع قِرْبة من الخزف. وكان صوت خروج الماء من القربة يُحدِث خريرًا حزينًا فخُيّل لمنصور أنّه يسمع غناء فوق مقبرة.

استعاض منصور الأعرج، وكان يصِله صوت الشيخ وحسب، عن الماء بذلك الصوت، فشعر بريّان أطرافه ولسانه. حتى إنّه حرّك كتفيه قليلاً وأصابته قشعريرة كما لو كان الماء يتدفّق بين كتفيه، وتذكّر موتى القرية. كان محايدًا بالنسبة لشيخ القرية، فلم يكن يحبّه ولا يبغضه. ولم يكن يأبه كثيرًا للسياسة، ولا لذلك الحديث الذي سمعه عن الصراع في تعز وصنعاء. وفي أعماقه، كان يفكّر بأمر آخر: أن يتبع سبيل النهر، فالنهر يخرج دائمًا من عينٍ فيها الخلاص، ولم يكن يدري أيّ خلاص ولا من ماذا!

ها هو يقف على مرمى حجر من الشمس، وكانت قد تجاوزت أعلى قمّة في جبل صبر وبدأت تهيمن على كلّ البقاع بنورها، وبانت القُرى تحت نورها وكأنّها خلَقتها للتوّ. أصبح منصور ضمن رعاياها. وكان لا يزال حتى الفجر، في منتصف شعبان ذلك، من رعايا القمر.

يعرف منصور ذلك الطريق جيّدًا. هنا، تحت تلك الشجرة الكبيرة، جلس قبل عام وأخذ قسطًا من الراحة والأنفاس، وقال للشمس في ذلك المكان إنّه واحدٌ من رعاياها. شرب الماء من زير بارد وضعه فاعل خير منذ زمن طويل. كان هناك إلى جوار الزير العديد من القِرِب الخزفيّة، ولم يحدث أن اختفى زير واحد في أيّ وقت أو قِربة واحدة. لم يكن وحده هناك، قبل عام. كان مع رفاق خمسة آخرين أرسلهم الشيخ بقيادة نجله إلى قصر الإمام في تعز. هناك كانت بعثة عسكريّة مصريّة في انتظار المتقدِّمين للالتحاق بجيش الإمام الذي ينوي تشكيله، وكان قد طلب من مصر أن تساعده في ذلك. مرّ الخمسة من البوّابة، أمّا منصور فقد أوقف في الباب. «أنت أعرج» قيل له، ولم يسمع كلمات أخرى.

كان يعرف أنّه أعرج، فلم يجادل في الأمر. ويعرف، كما سمع من والده مئات المرّات، أنّ الأعرج لا يصلح لشيء. ويدرِك، كما قال له نجل الشيخ وهم يدخلون مدينة تعز من بابها الغربي، أنّ الأعرج لا ينفع في النصر ولا في الهزيمة.

أراد أن يقول لحرّاس البوّابة: الآخرون. لكنّه تذكّر أنّه أعرج. في تلك الساعات، لم يكن أحدٌ يرعاه سوى الشمس، وفيما بعد سيتبع طريق النهر، وسيكون النهر أباه والشمس أمّه، وسيكمل حياته مؤمنًا بذلك.

عاد الأعرج من الباب، ولم يجد رفاقه طيلة النهار، فقد خرجوا من باب آخر بعد لقائهم باللجنة العسكريّة المشكّلة من عسكريين يمنيّين ومصريّين. أمّا الخمسة، رفاقه، فلم يتذكّروا أنّ منصور الأعرج كان معهم في الصباح، ولم يلتقوا به في الطريق الطويل حتى حذران، ولم ينتظرهم. ففي طفولته، انتظرهم كثيرًا في كلّ الأماكن في حذران ولم

يأتِ منهم أحد. وكان يلقاهُم على سبيل الصدفة. وليس صحيحًا أنّ الشيخ هو من أرسله مع المجموعة للقاء اللجنة العسكريّة. كانت تلك كذبة صدّقها منصور. فقد كان متعطّشًا لتصديق الكذب الذي على تلك الشاكلة، كأن يُقال له إنّ فلانًا ذكرك أو تذكّرك. ولم تكن عزلته أمرًا هيّنًا.

كان ذلك قبل عام.

وفي فجر السادس من أبريل ١٩٥٥، نهض شيخ حذران من فراشه وتأمّل الوادي، وكان الغبش يملأ الأرجاء. وفي تمام التاسعة، كانوا يدخلون الميدان يشبك كلّ واحد منهم أصابع كفّه في أصابع الآخر خوفًا من الضياع داخل ذلك البحر البشريّ الهائج والمتحفّز. وكانوا في صفوف متوازية. ولم يكُن أهل القرية يدخلون أسواق مدينة تعز سوى متشابكيِّ الأصابع، فهي مدينة تمنح القرويّ الوحيد إحساسًا قاهرًا بالضياع والرهبة، ولم يكن نادرًا أن يفقد القرويّ وعيه فور اجتيازه لباب المدينة الغربي.

عثر منصور على مكان مرتفع بعض الشيء وصار بمقدوره أن يرى المقدّم أحمد الثلايا، قائد الفرقة العسكريّة التي انقلبت على الحاكم وحاصرته في بيته لأيّام. كان الثلايا يرتدي زيًّا شعبيًّا من الأصفر والأخضر والأبيض، وكان ساعداه عاريين، وقدماه مصفّدتين، ولم يكن خائفًا ولا سعيدًا. كان تائهًا ومحتارًا، وكان يدور بعينيه على وجوه الناس كأنّه يكتشفهم لأوّل مرّة. عثرت عليه عينا منصور عن بُعد، ثم سرعان ما طاشت في الحشود. كانت حشودًا متنوّعة، قدمت من كلّ مكان في شمال اليمن ببنادقها ومواويلها الحربيّة لنجدة الإمام المحاصر، وكانت غالبيّتها من قبيلتي بكيل وحاشد، وهما أبعد ما تكونان عن حذران.

لا يعرف منصور الأعرج، حتى تلك الساعة، شيئًا عن بكيل وحاشد. سمع زوامل وأشعارًا تصعد من بين الحشود ومن أكثر من جهة ولم يفهم شيئًا. يتحدّث منصور الأعرج لهجة حذران، وكانت حدود لسانه تقف عند ذلك. لم يكن يدري ما الذي سيحدث، ولا لماذا، ولم يكن يهتمّ كثيرًا. بيْدَ أنّ زوامل القتال التي تناهت إلى سمع منصور ذلك الصباح نهبته نهبًا، فجعل ينقل بصره إلى أحمد الثلايا كلّما أُتيحت له فرصة، كأنّما يستمدّ منه الجسارة والقوّة.

وكان الثلايا في ثيابه وحيدًا مغمض العينين تحيط به الحشود الجائعة، وهي تصيح بدمويّة طاغية «اقتله، اقتله، اقتله».

في الليلة الماضية، بعد صلاة العشاء، طلب شيخ حذران من الموجودين في المسجد مرافقته إلى الميدان في تعِز ليشهدوا العدالة غدًا. قال إنّ حدّ الله سينفّذ في الخونة، وذكر اسم الثلايا فقط. وفي الطريق، كان مرافقوه يسألونه عن البقيّة، فقال إنّ الثلايا غرّر بهم، وإنّه لولا الخديعة لكان جنودنا أفضل الجنود، ولكان جيشنا أعظم جيشٍ على الإطلاق.

الجنود الذين حاصروا الإمام في قصره كانوا أكثر حماسًا لإعدام قائدهم، وكانت عينا الثلايا تلتقط ملامحهم ووجوههم، وبدا كأنّه لم يرَهم من قبل.

في الأيّام التالية، قال الذين آمنوا بالثلايا إنّهم سمعوه يلعن الموجودين جميعًا، لأنّهم هتفوا بموته وكان يريد حياتهم.

أمّا الآخرون، وهم غالبيّة، فأنكروا تلك القصّة بالمجمل. قالوا إنّه كان خائفًا ومليئًا بالعار والذلّ، وأنّ لسانه كان مربوطًا بخوفه وخزيه، وأنّه مات ولم ينبس ببنت شفة، وأنّ الذين وضعوه في القبر

شمّوا رائحة شياط ودخان في الحال. فليس من اليسير على السماء والأرض أن يحاصر قائد عسكريّ منزلاً فيه العديد من بنات النبيّ، قال الرجال.

وكانت نساء قصر الإمام المحاصر قد بعثنَ رسائل استغاثة إلى القبائل والشيوخ في كلّ الأنحاء، ولم تكن الرسالة سوى خصلات صغيرة لنساء القصر ممهورة بنداء حاسم: «يا غارة الله، بنات النبي».

أشعلت تلك الكلمة النار في العيون والسيوف، ولم يمض سوى وقت قصير حتى كان ذلك القائد تأكله النار في قبره.

أمام النهر، صبيحة اليوم التالي، وقف منصور الأعرج. كان خرير النهر يفتح شبّاكًا في صدر منصور، ويربّت على كتفيه. هبّت نسمة خفيفة داعبت أذنيه وعنقه الأسمر العاري. رأى قامته في النهر، فانتبه إلى أنّ ذراعيه عاريين، وفقد إحساسه لثانيتين أو ثلاث. خُيِّل إليه أنّ رأسه سيسقط في النهر، وأنّ النهر سيجرفه إلى المدينة، وأنّ المدينة ستركله إلى الأبد.

تحسّس صدره وذقنه الخفيفة والرقيقة.

بكى منصور في تلك الساعة، وهو لا يبكي كثيرًا. تذكّر كيف سقط رأس الثلايا البارحة وبقي جسده منتصبًا لبعض الوقت ثم هوى. سحرته اللقطة، ولكنّه لم يفهم ما الذي يدفع المرء إلى القيام بأعمال يمكن أن تؤدّي إلى سقوط رأسه. ولا ما إذا كان أحمد الثلايا يشعر بالسعادة أو الندم في تلك الثواني.

فجأة تقيّأ منصور في النهر، تقيّأ ثلاث مرّات.

جرف النهر ما ألقته معدة منصور، وبقي صافيًا. أمّا منصور، فقد تبع النهر حتى الأعلى، وكان يمشي على حافّته وأحيانًا يخوضه بقدميه.

٤

يوجد منزل الحاجّ هزّاع الحارس بالقرب من ضريح الباهوت صفيّ الدين أحمد بن علوان. أمّا قرية يفرُس، التي تحتضن ضريح الباهوت، فعلى بعد ساعتين من المكان الذي فقد فيه منصور الأعرج أثر النهر.

عندما التقى هزّاع الحارس بمنصور الأعرج لأوّل مرّة، كان في السابعة والخمسين من عمره.

وقبل زهاء ٣٧ عامًا، عندما كان هزّاع في العشرين من عمرِه، سلّم الأتراك صنعاء إلى الإمام يحيى حميد الدين، فعاد هزّاع ووالده إلى قريتهما في تعز. لنكُن صريحين: لقد هرب الرجل وابنُه من صنعاء.

«سنصبح من رعايا الإمام، وسيقطع أرزاقنا»، قال والد هزّاع لابنه وهما يدمّران تجارتهما. لم تكن سوى معمل صغير وغرفة طينيّة لصناعة الخمر البلديّ. كان الأتراك يطلقون على اللون الذي يصنعه

عبد القويّ غالب، والد هزّاع، اسم «العَرَق» ويفضّلونه مخلوطًا باليانسون ولا يشربونه إلّا وهم في وضع القرفصاء. عاش عبد القويّ حياته مسرورًا، وكانت الحامية التركيّة كلّها في خدمته. في طريقهما إلى تعِز، قال لابنه الشابّ إنّه لن ينسى رائحة النساء التركيّات قطّ.

«لم يكن الأتراك يعرفون في صنعاء سوى حجرتي، وكنتُ أشتمّ رائحة كلّ بيوت الأتراك».

قال إنّه كاد يفقد حياته عندما صرخت امرأة تركيّة، كان اسمُها حفيظة وكانت في الثالثة والأربعين من عمرها، في عصر يوم في صنعاء. بعد ذلك، قال، كان يربط فم حفيظة بشالها الأسود. «كانت تلك فكرتها» قال عبد القويّ غالب لولده هزّاع. وعندما طلبتْ منه أن يجلدها بحزام زوجها العسكري، نسي كلّ شيء، نسي أنّها امرأة تحبّ الصراخ وقد تقضي على حياته. نسي أنّها مثل الإبل لا تشرب إلّا بالصفير، كما قال. وأشعلت الفكْرة حريقًا في صدر عبد القويّ غالب.

«جلدتها بحزام زوجها. كانت عارية مشرّبة بالحُمرة. كان الدم على وشك أن يقفز من ظهرها. كان جسدها يلمع مثل سماء القسطنطينيّة. تعرف القسطنطينيّة؟ تعرف الآستانة؟ أنت لا تعرف شيئًا يا أحمق؟».

تمهّل قليلاً ريثما يشرح لولده ما هي الآستانة وأين تقع. لكنّه تراجع عن الفكرة وأكمل حديثه عن حفيظة.

«كان الدم يسري تحت جلدها فتشعّ. كانت سعيدة وأنا أعذّبها وكنت على وشك أن أسقط من على صهوتها. لقد جلدتُ السلطنة العثمانيّة وانتقمت لشعوب الأرض. لم يحدث أنّ أحدًا جلد العثمانيين بتلك الطريقة سوى عبد القويّ غالب والروس. تعرف ما فعل بهم

الروس؟ الجنود الأتراك لا يتحدَّثون سوى عن هزائمهم عندما يسكرون. لقد قصُّوا عليَّ أحزانهم كلّها وما فعل بهم الروس. وها أنا أقصُّ عليك ما فعلتُه بهم. احفظ كلماتي يا أحمق».

توقّف عبد القويّ غالب عن الكلام للحظات، كما لو كان يستمع إلى صوت بداخله.

«ها هم يتخلّون عنّا يا هزّاع. الأتراك يتخلّون عنّا ويعودون إلى الآستانة في الشمال».

كانا قد اقتربا من مدينة إب عندما سمع هزّاع هذه الحكاية من أبيه. ترك والده، قال إنّه ذاهب لقضاء الحاجة وسيعود.

في الخلاء، ولم يكن في الأنحاء من منزل أو بشر، جمع كومة من أوراق شجرة سدر ثم طحنها بحجر صغير على صخرة حارّة. فرك العجينة في كفّه اليمنى ومسحها على عضوه. لم يكن يعرف أيّ جهة هي تلك التي تؤدّي إلى عاصمة الأمبراطوريّة العثمانيّة. لكنّه خمّن «الشرق. لا بدّ وأنّهم قادمون من الشرق، مع الشمس». وقف في الظهيرة وكانت الشمس في الأعلى، موجّهًا عضوه الذكري في ذلك النهار الحارّ تجاه الشرق، وجعل يدهنه بعجينة السدر تحت سماء إب الجائعة. وعندما أكمل هجومه على الآستانة، ألقى ثلاثة أحجار في اتّجاه المشرق وعاد إلى أبيه.

وهما يتأمّلان أرضًا منبسطة في الأسفل، قال له أبوه:

«أعجبتني الطريقة التي عاقبتَ بها الأمبراطوريّة العثمانيّة. الروس وأنت وأنا، الثلاثة، نلنا من الأتراك».

وضحكا في وضح النهار.

«يبدو أنّك أردت أن توجّه مدفعيّتك على الآستانة مباشرة؟».

«كنت تراقبني؟».

«لا يا أحمق. كان عضوك واقفًا وأنت تقوم. أنت أحمق. هل تدري ماذا فعلت؟».

«... صمت».

«ذلك هو المشرق. في المشرق توجد روسيا. في الشمال، من هناك، تظهر الآستانة عاصمة العثمانيّين. أنت أيّها الأحمق هاجمت روسيا. أنت حليف للأتراك».

ضحكا من جديد، وتظاهر هزّاع بالخجل. لكزه أبوه بكوعه على كتفه، وهما جالسان. أخرج قارورة من صرّته بها سائل يميل إلى الصفرة قليلاً. أخذ نَفَسًا عميقًا ثم ملأ فمه. ناول هزّاع، ففعل مثل والده. نظر إلى الحمارين الواقفين، كانا متعبين فأحسّ بقليل من الشفقة.

«لنمنح هذين المسكينين اسمين»، اقترح عبد القويّ غالب بلهجة بدا عليها الانكسار والدفء.

«تريد أن تسمّي الحمارين؟» سأله هزّاع وعيناه لا تزالان تغوصان في السهل البعيد.

«وماذا في ذلك؟ ألا يستحقّان نظير تعبهما؟ سأسمّي حمارك الشمالَ، وأطلق على حماري اسم المشرق».

قام هزّاع من مكانه وجرّ حمارَه الشمال إلى الوادي. أمّا عبد القويّ غالب، فوضع كيسين في بردعة المشرق وصاح بصوته الماجن العظيم:

«حااااااه».

على بعد مئات الأمتار من ذلك المكان الذي استراحا فيه، كانا يضحكان من جديد بصوتيهما العاليين والماجنين، ولا يعلم أحد ماذا كان ذلك السكِّير الطيّب يقصّ على ابنه في تلك اللحظات.

عندما وصل الحماران، الشمال والمشرق، إلى تعز ومن خلفهما عبد القويّ وولده، كان الأتراك قد سلّموا تعز أيضًا للإمام يحيى حميد الدين. استراحا قليلاً، وملأ الكمد قلب عبد القويّ غالب، فنهض من استراحته القصيرة وصاح بصوت ضرب مدينة تعز حتى سفح جبل صبر:

«حاااااااااااه».

اجتاز الرجلان مدينة تعز، ثم دخلا أراضي حذران. خذلتهما الحامية التركيّة في كلّ مكان، وفرّا بصَنْعَتِهما من عيون الحاكم الجديد.

وفي نهار واحدٍ، عبرا الوادي الفاصل بين جبل صبر والجبل الحبشي، وتبعا طريق السيل أوّلاً، ثم طريق النهر حتى فقدا أثره، سالكين الدروب ذاتها التي سيسلكها منصور الأعرج بعد أكثر من ثلاثة عقود من الزمان.

انزلق «الشمالُ» في الطريق وسقط بين الأشجار وانكسرت إحدى سيقانه. كان يئنّ وينهق، ثم استلقى على جانبه الأيسر وفتح عينيه تجاه الجبل، وبقي يحرّك ذيله فقط. تركه الرجلان، وقال عبد القويّ غالب بعد أن تجاوزا الأكمة الملعونة، إنّ الحمار سقط بالطريقة نفسها التي انهزمت بها السلطنة العثمانيّة.

جوار ضريح الباهوت صفيّ الدين أحمد بن علوان، نزل الرجلان

عشاءً، فشربا ما بقي لديهما من الماء والعَرَق، ثم ناما ليلة كاملة.

في الصباح، قال هزّاع لوالده إنّه وجد سكينة عميقة لم يجدها قطّ في صنعاء. وقال عبد القويّ لهزّاع إنّه وجد أمنًا يشابه ذلك الذي كان يجده لدى الحامية التركيّة.

كان هزّاع يجهل المكان الجديد، أمّا عبد القويّ غالب فقد مرّ بالقرب منه قبل عشرات السنين وسلك طريقًا طويلاً انتهى به إلى صنعاء.

٥

من مكان بعيد، استطاع منصور الأعرج رؤية بناء أبيض، ذي منارة وقُبّتين كبيرتين. على التلال القريبة من البناء، رأى بعض الدور المتناثرة. كانت قرى صغيرة، وكان دخان كلّ قرية يصعد غير مختلط بدخان القرى الأخرى. منذ حوالى ساعتين لم يعد للنهر من أثر، وكان نهار السابع من أبريل يوشك أن ينقضي هو الآخر.

سأل امرأة كانت تسوق أبقارًا، فقالت إنّه ضريح أحمد بن علوان قدّس الله سرّه.

كانت امرأة في مطلع الثلاثين من عمرها، فيما يبدو، وكانت تغطّي فمها وأنفها بقطعة قماش ملوّنة، فبدا كأنّ في صوتها غُنَّة، وهو ما لم يفهمه منصور.

تحسَّس منصور الأعرج طريقه. وعندما لمس الجدار الأبيض لمسجد الغوث أحمد بن علوان أحسّ بقشعريرة تسري في أصابعه وببرد عاصف يحوم حول ساقيه. أمّا قلبه، فقد استمرّ في الخفقان حتى

أوشك على السقوط. رأى أُناسًا يدخلون ويخرجون، وسمع أصوات نسوة في الداخل، وخليطًا من الغناء والقرآن. كان المكان معمورًا بالسكينة والرهبة، بالضوضاء والسكون العميق. يعرف منصور الأعرج أين هو الآن، لذا استمرّ قلبه في الخفقان وارتجفت عيناه حتى فقد القدرة على رؤية الأشياء وبدا له العالم كستارة بيضاء، وذهب يتحدَّث إلى نفسه للحظات.

«جئتك من أقصى الأرض يا سيِّدي الباهوت. جئتك من الجهة الأخرى من الأرض. أنا الأعرج الذي يجهلني كلّ الناس ويبصرون عرجتي في لمح البصر».

سمع منصور صوته، وكان غائمًا وغائبًا وراجفًا ووجلاً.

«دلّني نورك إليك. بالأمس كنت في الجهة المظلمة. بالأمس قطعوا رأس رجل».

أُصيب منصور، الفقير والخائف والهارب والأعرج، برهبة الباهوت بينما كان يقف أمام ضريح الغوث أحمد بن علوان. لطالما استنجد به في طفولته واستنجدت به أمّه وهي تجود بروحها، وأبوه وهو ينزف في الوادي.

وعلى مرّ الأيّام، كان الغرباء يُصابون برهبة الباهوت ما إن يقتربوا من ضريحه في يفرس، في الجهة الغربيّة من تعِز. وفي السابع من أبريل ١٩٥٥، وقف منصور الأعرج أمام ضريح الباهوت ابن علوان فأخذته الرهبة، ثم الوجيب والرجفة، ثم دخل في طور من الهلوسة والجنون، ثم غطّته سحابة بيضاء من النعاس الجبليّ الناعم، ثم غاب عن العالم. غاب كلّيًا عن العالم، وغاب عنه العالم، وبقي رأس الرجل الذي قُطع البارحة. ظلّ ذلك الرأس يتدحرج أمامه بلا توقُّف، والجسد واقفًا.

في ظلام القرية، رأى رجلان جسد منصور الأعرج، وكان ممدّدًا على الأرض. وضع أحدهما يده على قلب منصور، فسأله الآخر «حيّ؟» فردّ عليه «يخفق بسرعة. يبدو أنّه عاشق، مسكون بالوجد».

حملاه إلى داخل الضريح، وتليا عليه القرآن، ثم مسحا على جبينه قطرات من ماء الضريح المبارك. فتح عينيه، كان البنيان ساحرًا وأخّاذًا. ينتهي بياض الجدران إلى قبّة في الأعلى، وكانت سماء الضريح خضراء. خطوط زرقاء تزيّن الجدران، عليها أذكار ونصوص. تحت تلك السماء الخضراء والبيضاء كان ضريح الباهوت أحمد بن علوان محروسًا بسياج من الحديد، ومغطّى بملاءة خضراء، عميقة الخضرة، عليها كتابة تحت عنوان مبجّل «من تسبيحات وكلام الشيخ أحمد بن علوان».

ساعد الرجلان منصور الأعرج على الجلوس. كان قد استعاد روحه، فيما يبدو، وذهبت عيناه تغرقان في المكان. صُمِّم الضريح، والقبّة التي تغطّيه، بلا نوافذ.

«من يجرؤ على أن يمدّ ابن علوان بالنور وهو نور العالم»، قال أحد الرجلين لمنصور عندما سألهما ما إذا كانت هناك نافذة للهواء أو الضوء. كان بحاجة إلى الهواء حتى يستعيد ذاته التي انهارت دفعة واحدة.

لم يفكّرا بسؤاله عن شيء. نصحاه بالمكوث لبعض الوقت في الضريح قبل أن يكمل رحلته. «أيًّا تكن رحلتك، تزوّد من نور ابن علوان. أنت عاشق، حافي القدمين وشمس الغداة حارّة»، قال أحدهما.

قال الآخر:

«املأ جسدك النحيل من نور الباهوت».

لم يسألاه عن جهته.

عندما عثرا عليه ملقى خارج الضريح، كان الليل قد مضى منه الكثير. وما إن أصبح قادرًا على الكلام، حتى بادره أحدهما «أنت الأعرج الذي دخل القرية قبل المغرب؟» قال إنّ اسمه منصور.

وفي صباح اليوم التالي، قال رجل من القرية لابنه «اذهب بهذه اللقمة إلى منصور الأعرج». عاد الابن بعد وقت قصير، ربّما لم يتجاوز النصف ساعة، وقال إنّه لم يجد الأعرج. «ناديت بأعلى صوتي، وسألت عنه. لم يترك أثرًا».

في أوّل صباح للأعرج في يفرُس، صلّى خلف الإمام. قرأ الإمام سورة الواقعة، وابتهل في دعاء القنوت بعد الركعة الثانية.

«اللَّهُمَّ اجعلني لك جليسًا، وبك أنيسًا، ولديك نفيسًا، وفي برج مشاهدتك حبيسًا، وفي سطر جلالة اسمك حرفًا طميسًا. ولا تجعلني من رحمتك قنوطًا، ولا من كرمك يؤوسًا. اللّهمّ اجعل فرحي في الدارين لك، ومحبّتي في الدارين لك، وحاجتي في الدارين إليك، واعتمادي في الدارين عليك، ووقوفي في الدارين بين يديك. لا تصرفني بتصاريف الأحوال، ولا تعرِّضني لمعاريض الأهوال، ولا تحيِّرني بين مختلفات الأقوال، ولا تفتنِّي بمحبّة المال، واهدني إلى الرشد وزحزحني عن الضلال، واعصمني من التردُّد بين الإدبار والإقبال. اللَّهُمّ ألزم نفسي بمعرفتك تقواها، وأصلح بدوام مراقبتك سرّها ونجواها، وأكرم بطاعتك في الدنيا مثواها».

وعوضًا عن أن يشعر منصور بالخشوع، فقد داهمه الخوف. كان يصلِّي الفجر إلى جوار رجلين آخرين، غير الإمام. أحد الرجلين كان

اسمُه الحاجّ هزّاع الحارس، وكان يبلغ من العمر ٥٧ عامًا على الأقلّ. صافحهم الإمام، وكان اسمُه الحاجّ عبد الغني الموحّد. قدّامَ المسجد، صافح الإمام الموحّد الأعرج مرّة أخرى. وهو يتأمّل ملامح وجهه مع خيوط الفجر الهشّة، سأله ما إذا كان يحفظ كلمات الباهوت ابن علوان، فهزّ الأعرج رأسه قائلاً «لا». قال إنّه سيعطيه كتبًا، فشكره منصور بلا كلمات.

تسلَّل منصور في الدلجة المختلطة بالنور، وهبط إلى الأسفل. قال إنّه يريد أن يغسل وجهه مرّة أخرى، لكن من النهر. كان يحاول أن يجد تفسيرًا لحركته، وحسب. أعطى المسجد ظهره، وكان يلتفت بين الفينة والأخرى حتى اختفت المنارة البيضاء وبقي منصور وحيدًا بين جبلين. وزّع بصره بعناية، فلم يسمع حسًّا، ولم يرَ مخلوقًا. «الله»، صاح منصور، فعاد صدى كلمته أكثر من ثلاث مرّات. «يا باهووووت» نادى بأعلى صوته، فعاد إليه نصف الكلمة. في تلك الأثناء، أحسّ منصور بأنّه يمتلك كلّ ذلك المكان، وأنّه أيضًا باهوت. قبّل صخرة أو صخرتين، ثم واصل هبوطه.

كان الوقت ربيعًا وكان هناك خرير ماء. الخضرة كست الأشجار سريعًا، وبين الجبلين كان الظلام لا يزال نائمًا وخيوط الفجر أقلّ. سمع أصوات حشرات الماء، فتدفّقت رهبة في صدره. منصور ابن قرية حذران، وعلينا ألّا ننسى هذا الأمر. أمّا حذران، فهي السهل البعيد الذي تنتهي إليه كلّ سيول وأنهار الجبلين. وفي حذران، حفر منصور عددًا من الآبار وردم آبارًا أخرى. وكان الماء يغمر زرع حذران لحوالى ستّة أشهر في العام، وكذلك قدميّ منصور حتى منتصف ساقيْه.

قبل يومين من الآن، بينما كان منصور يدلف بعرجته إلى مدينة

تعز، قال للشمس إنّه واحد من رعاياها، وإنّها أيضًا أمّه وإنّ النهر أباه. في الواقع، كان منصور قد عقد هذا المستوى من القرابة مع الطبيعة قبل سنين طويلة.

وجد منصور الماء وكان الصبح قد تنفّس أخيرًا. لم يتبيّن منصور ما إذا كان قد مرّ البارحة بتلك النقطة من النهر. دسّ أصابعه في الماء، فسرت برودة من قدميه إلى شفتيه، واستيقظ فيه كلّ شيء. غسل وجهه، فرأى شمسًا بين عينيه. وقف أمام النهر وكان أعرجَ كالعادة، لكنَّ أحدًا لم يكن ينظر إليه. صاح بأعلى صوته «يا باهووووت»، فعادت إليه الكلمة كلّها هذه المرّة، وأحسّ بأنّه هو ذلك الرجل، وأنّ الجبل والنهر يقصدانه بالباهوت.

حول النهر، وجد منصور تلك الشجرة الصغيرة التي تدهشه. كانت ذات أوراق عريضة يتكوّر عليها الماء كأنّه زئبق ولا يبلّلها. يطلق عليها سكّان حذران «العوّامة». قطع ورقة ولفّها قليلاً ثم مرَّرها في الماء. رفعها إلى الأعلى، فسالت قطرات باردة بين شفتيه، وهبطت إلى أعماقه. اعتقد أنّها هبطت إلى رئته، فوقف مرّة أخرى. تنفّس بعمق كأنّه وصل للتوّ إلى الأرض. هبط مع النهر قليلاً، وبعد مسافة قصيرة، جمع كومة من أوراق «العوّامة» فوضعها تحت رأسه وغفى قليلاً. استيقظ منصور بين الثامنة والنصف والتاسعة، وكان وحيدًا يحدّه الجبلان، وطريقه النهر. صعد مع النهر من جديد، لكن هذه المرّة كان يمشي داخل الماء بقدمين إحداهما عرجاء، وبساقين يبّستهما شمس حذران البعيدة.

وقبل أن يجتاز الماء، وجد حِمَارَة بنّيّة اللون، كانت تشرب من النهر. نظر إلى أعلى الجبل، فرأى جزءًا من الشمس. أنصت إلى الوادي، فلم يسمع من حسّ سوى أنفاس تلك الحمارة التائهة. اقترب

منها ومسح على ظهرها، فحرّكت ذيلها. كانت جارته الوحيدة. تساءل ما إذا كانت تلك الحيوانة الشابّة قد دخلت مملكته، أم أنّه هو من اقتحم مملكتها. صاح من جديد، بعد أن سحب نفَسًا عميقًا: يا باهووووت، فحرَّكت الحمارة ذيلها وغمست فمها في الماء. لم ترجع إليه الكلمة هذه المرّة، ولم يكترث.

تأخّر قليلاً، واقتلع عشبًا طويلاً أخضر من أعشاب شجرة «العوّامة». أدنى العشب من فرج الحمارة، فحرّكت ذيلها وابتلعت ريقها. غمرت تلك الحركة شتات منصور بالرضا، وبدا له أنّ الله لم يخلق النهر منذ الأزل إلّا لأجل أن يدلّه إلى تلك الحيوانة الشابّة. نهضت كلّ رجولته دفعة واحدة، وصاح في الوادي «أنا الباهوت»، ولم يسمعه من أحد سوى حمارة بنِّيّة اللون دخلت مملكته مع الفجر. استوت الشمس أعلى الجبل، فدفع منصور الحمارة إلى الظلّ قليلاً «لا ينبغي لأمّي أن تراني الآن»، قال لنفسه. كانت الحمارة تبلع ريقها وتصدر صوتًا من أنفها، وكان منصور يكتشف عالمها الفريد، ويجزّ على شفتيه. كان مغمض العينين تاركًا عينيّ الحمارة تحرسان النهر. ألقى بجسده في الظلّ، ولم يفتح عينيه.

كان في الثامنة عشرة من عمره، ولا نعرف كم من العمر كانت تبلغ تلك الحمارة الشابّة.

عندما انتصف النهار، قام منصور من مكانه وقرَّر العودة إلى مسجد الباهوت ابن علوان. أحسّ بأنّه الآن أصبح قادرًا على مواجهة الحياة، فلديه أصدقاء في الضريح، وجارة عند النهر، هناك شمس في الأعلى ونهر في الأسفل. كما أنّ روح الباهوت تحرس كلّ الأرجاء.

أدركته الغيوم القادمة من خلف الجبل، فانتظر المطر. وقف على

صخرة صغيرة تطلّ على النهر مستسلمًا لأمزان المطر، ورهبته. كان البرق يضرب الجبل من آن لآخر، فيكشف سرّ السماء والأرض معًا. وكانت الريح تصفِّر في ثيابه وبين إبطيه وهو مغمض العينين، فيرى قيعان ذاته كلّها. سلَّم للسحاب شأنه، فطهّره السحاب من خوفه ووحشته، ومن أمور أخرى.

في المساء، قال للحاجّ عبد الغني الموحّد إنّه نزل إلى النهر، وأخذته سنة من النوم.

ضرب الإمام الموحّد على صدر منصور برفق «اللهمّ اشرح صدر عبدك منصور»، فسمع منصور صوت الضربة يتردَّد بين الجبل والوادي، وكانت هي البرق الأكثر لهبًا في حياته.

أدار منصور ظهره للنهر بعد ذلك، ولجارته، وأحبّ عبد الغني الموحّد.

٦

في تلك الليلة، جال منصور الأعرج بين المسجد والضريح لبعض الوقت، ثم اضطّجع وقام عشرات المرّات. كانت روحه تهوي في مكانٍ ما. وبالرّغم من الأمان الذي وجده لدى الباهوت، إلّا أنّ قلب منصور ذهب يرجف كأنّه لم يعرف المكان بعد. لوهلة، سمع قلبه في الخارج، وبقي يحوم حول المسجد أو ينزل درَج المسجد فارًّا. ولمّا اجتاز العتبة الفاصلة بين القبّتين الكبيرتين، سمع قلبه يضرب قبّة المسجد من الداخل، كخفّاش، ويئنّ في الوادي كبومة. اضطّجع وتأمّل السقف، سقف مسجد الباهوت، فرأى المزيد من القباب، وإلى جوار كلّ قبّة كبيرة رأى أربع قباب صغيرة، فوضع ساعده على وجهه. لم يفكّر قبلاً بالنوم تحت سماء كلّها قباب، ولا أن يكون جارًا وحيدًا للباهوت، سيّد السهل والجبل. وتراءت له قبّة صغيرة وهي تسقط على رأسه، وفشل في تخيُّل نفسه ميّتًا أو حتى مجروحًا. «فلا يجرح المرء وهو نائم بالقرب من الباهوت»، حدّث نفسه.

كان العالم يزعجه، كلّ العالم، وكانت عرجته تزيد غربته.

عندما كان في العاشرة، بعد وفاة أمّه بعامين، أخذته سيِّدة عجوز تسكن في أطراف حذران، فرافقها إلى قرية عُقاقة. كانت عقاقة قرية قديمة تقع عند سفح جبل صبِر وتنظُرُ إلى مدينة تعز جهة الشرق. هناك، مسّ الطفل ضريح «سيِّدة الحور» وقبّله، كما فعلت السيِّدة العجوز. كانت السيِّدة العجوز تبتهل وتذكر الكثير من الأسماء. أمّا منصور، فكان يذكر اسمًا واحدًا. كان ضريحًا مطليًّا باللون الأبيض لا تحيط به البيوت، وفي أعلاه شاهد محاط بمئات الخيوط الملوّنة. للضريح شبّاك صغير يفضي إلى بهو أو فراغ محدود. دسّت العجوز يدها في تلك الحفرة ووضعت شيئًا ما، ولم يدرِ منصور كنهه.

كانت سيّدة الحور، والدة الباهوت أحمد بن علوان، تنام في ذلك الضريح منذ مئات السنين.

«حذران مباركة بهذه الروح الطاهرة»، قالت له العجوز.

«وقبر أمّي؟» سألها.

«وقبرُ أمّك مبارك بروح سيّدة الحور»، أجابت.

«وقبرُ أبي؟»، سألها.

«قبور الرجال لا تباركها سوى قبور الرجال. لو ذهبت إلى قبر الباهوت في يفرُس، بين الجبلين، ورجوته لارتاح أبوك في قبره».

مسحت على رأس الطفل محاولةً أن تنتشله من حيرته وألمه:

«أبوك كان يؤذي أمّك، أنت تعلم ذلك. لا شكّ أنّ روحها ستعذّبه في القبر. لقد نال ما يكفي من العذاب منذ موته. صار لازمًا عليك وقد كبُرت أن تذهب لتطفئ ناره». وكان أبوه قد توفي منذ ثلاثة أشهُر.

قبّل الطفل منصور الأعرج ضريح سيّدة الحور مرّة أخرى، وجلس على ركبتيه كما يفعل الكبار. فركتْ السيّدة العجوز شعر رأسه، وحكّت بأناملها خدّه الأيمن، بينما كان غارقًا في ابتهاله وحيرته.

«من مسَح على رأسِ يتيم كُتِبت له بكلّ شعْرَةٍ حسنة»، ذهبت المرأة تحدّث نفسها دون صوت. ووقفت تتحسَّس الشعر الناعِم لمنصور محاولةً الوصول إلى كلّ شعرة. غمرت السعادة العظيمة صدر منصور الأعرج، وكان الله قد دفع ثمن سعادته في تلك الساعة.

عندما اقتربا من حذران، بين العصر والغسق، أشارت المرأة العجوز بيدها إلى الشمال الغربي، «لو سرت من هناك ستجد ضريح الباهوت أحمد بن علوان».

«ولو سرتُ من هناك؟» سألها وهو يشير إلى الغرب.

«ستجد البحر، أو لن تجد شيئًا»، قالت.

«وعرجتي؟ هل أصل إلى البحر أو إلى الباهوت وأنا أعرج؟».

«المرء يسير بقلبه لا بقدميه. انظر إليّ. تأمّلني».

وراحت تدور في مكانها.

«المسافة التي مشيناها معًا ليست هيّنة على عجوز في سنّي وصحّتي».

وهي تضع يدها على الجانب الأيسر من صدرها، قالت:

«هُنا السرّ، والقوّة، والعذاب، والضعف. أوّل من سيدخل الجنّة رجلٌ أعرج».

بُهِت الطفل الذي كان اسمه منصور الأعرج.

«أعرج؟ وكيف عرفتِ ذلك؟»

«سمعتُ. سمعتُ أنّه رجلٌ أعرج أكله سبع بين الوادي والجبل. كان ذلك في زمن المسيح عليه السلام. وعندما رأى المسيح ما بقي من عظامه، اقشعرّ جسده وبكى حتى خجلت السباع من دموعه وتقيّأت جثّة الأعرج على طريق الخيول. سأل الله عن الأمر، فأخبره عن المأكول. كان رجلاً أعرج أراد أن يكون أوّل الداخلين إلى الجنّة، ولم يكن عمله يبلغه تلك المنزلة، ولم يكن يحبّ أن يسعى كثيرًا في الأرض. كان لا بدّ وأن يأكله وحش، فلم يعُد لديه من وسائل أخرى لبلوغ الدرجات العُليا التي يطلبها».

«أشعر بالخوف، لا أريد أن أكون أوّل رجل يدخل الجنّة».

قال منصور، وابتسمت السيّدة العجوز التي لم نعثر لها على اسم.

في تلك الليلة من ليالي يفرُس، في ذلك المسجد حيث قبّتان كبيرتان متجاورتان إحداهما تغطّي رؤوس المصلّين والأخرى ترتفع فوق ضريح الباهوت ابن علوان، وقبل أن ينام منصور الأعرج، قلّبَ كتابًا موضوعًا في كوّة صغيرة إلى اليمين من مكان صلاة الإمام.

«المهرجان للعارف بالله أحمد بن علوان»، هكذا كان عنوان الكتاب، وكان مدوّنًا بخطّ يد. تعلَّم منصور الأعرج القراءة في طفولته، وتلك قصّة أخرى، إذا لم نأتِ على ذكرها فلنتذكّر أنّه تعلَّم القراءة في سنٍّ مبكّرة.

مرّ منصور بالصفحات كما لو كان يطّلع على خزينة أسرار القرية، أو يطأ بستانًا محرّمًا.

«إذا أنزلَك عزلك، وإذا عزلك حملك، وإذا حملك أغناك، وإذا أغناك أفناك، وإذا أفناك بدا بذاتك، واتّصف بصفاتك».

انفجر طوفان العارف ابن علوان في ذلك الليل، فأغرق المريد الجديد. لم يكن منصور بسنواته الثمانية عشرة قادرًا على أن يصعد تلك الموجة. أمّا أنفاسه، فتجمّعت كلّها في حنجرته وخنقته، وبَهَتَ وجيب قلبه. ترك الكتاب جانبًا، أصابته رعدة. اتّجه إلى باب المسجد وأعطى صدره للجبل. كانت أنفاسه تنهب حنجرته وتصطدم بالهواء البارد في الخارج، وسرعان ما تصير إلى سحاب صغير من الدخان لم يره منصور. وضع يده على صدره ثم على جبينه، وأصابه دوار وكاد يتقيّأ. تحسَّس طريقه مرّة أخرى إلى الداخل. أشعل الفانوس ودلف إلى قبّة الضريح، حيث ينام العارف بالله أحمد بن علوان. جثا منصور على ركبتيه. طأطأ رأسه ولهج:

«أبي».

ونسي ما كان يريد أن يقوله.

عاد فاضطَّجع بالقرب من مكان صلاة الإمام، تاركًا الفانوس عند رأسه والكتاب أمام صدره. لم يكن يدري ما إذا كان قد فهم شيئًا ممّا قرأه من كلام القطب العارف، لكنَّ دمه كان يغلي وكانت القبّة في الأعلى تدور أو تهبط. فتح المخطوطة مرّة أخرى وجعل يقرأ:

«ما وراء ما خلق الله إلّا الله، ولا دون ما خلق الله إلّا الله، وما في كلّ ما خلق الله إلّا الله».

ضمّ الكتاب إلى صدره وحكّ بقدمه اليمنى عرجته اليسرى.

«وما في كلّ ما خلق الله إلّا الله».

راح يردّد أمام نفسه، ويرمي بالكلمات إلى أعماقه.

سقط جفناه وغرق قليلاً في النوم، ثم عاد ففتح عينيه واعتدل في جلسته:

«إذا أراد الله خراب الأمكنة، قبض العارفين منها ولم تخلّف الأمكنة أمثالهم» ،قرأ منصور الأعرج، فكسته خضلة وكدر. أغلق الكتاب وقرأ على غلافه:

«توفّي العارف بالله أحمد بن علوان ليلة السبت العشرين من رجب، سنة خمس وستّين وستمئة».

شهق منصور «سبعمائة عام، ولم يخلّف المكان غيره»، ثم خطرت على باله تلك الحيوانة الشابّة التي التقاها في الضحى بالقرب من النهر. لا بدّ وأنّ المكان قد أصبح خرابة، كما يقول العارف صاحب الضريح. وخطر في قلبه أنّه دخل أرضًا محرّمة أو جبلاً قلاه الإله منذ زمن. أحسّ بانقباض في صدره، وذهب إلى واحدة من نوافذ المسجد المطلّة على الوادي محاولاً أن يلتقط هواءً من الخارج، فقد أحسّ بلجّة هائجة تصعد من قدميه وتقترب من رئته. كان العالم نائمًا في تلك الساعة، على الأقلّ في القرى على الجبلين. إلّا منصور، فقد كان خائفًا وشريدًا. فكّر في أن يوقظ الباهوت، وذهب إلى الضريح.

«يـــا بـــاهـــوت، يـــا بـــاهـــوت، يـــا بـــاهـــوت، يـــا باهووووووووووووووت..».

مع كلّ كلمة، كان صوته يرتفع درجة. أمّا الكلمة الطويلة الأخيرة، فقد حيّرت رعاة الإبل في القرية المجاورة، و«فجعت أمّ الصبيان» بحسب التعبير الذي استخدمه حارس المسجد الشابّ الذي لم يكن منصور يعلم بوجوده. كان منصور مغمضًا عينيه، بينما كان الحارس يُدني فانوسه من وجه منصور ليستبين ملامحه. وبقيت أمّ الصبيان، ملكة الجنّ في الجبل، نائمة ونهداها مليئان بالحليب الأصفر.

«هل جننت، تريد أن توقظ الباهوت؟ أتدري ما الذي سيحدث لو تحرّك الباهوت؟ ألا تعلم أنّه قطب؟ تدري ما القطب؟ القطب جبل أيّها المعتوه».

أزاح الفانوس عن وجه منصور، وأشار به إلى الضريح، بينما كان يرفع يده ويخفضها بغضب، وكان لهب الفانوس يهتزّ.

«هنا، في داخل الضريح جبل. هل فهمت؟ كيف تجرؤ على أن تحرِّك الجبل النائم يا أعرج؟ أتدري ما الذي سيحدث لو تحرّك جبلٌ في قرية؟»

وضع الحارس فانوسه جانبًا، وجلس على مقعد حجريّ صغير مغطّى بقماشة خضراء. كلّ شيء في تلك القبّة أخضر، حتى الرهبة التي ضربت عظام منصور للتوّ كانت خضراء. بعد مضيٍّ ثوان، أو دقائق، قال له الحارس بلهجة تحاول أن تبدو ودودة:

«قبل خمسة أشهر، في شهر ربيع الأوّل، يوم الجمع المبارك، أقبل الناس من كلّ صوب لزيارة الباهوت. منهم من لم يزره قبل ذلك».

تلفّت الحارس، كما لو أنّه فقد الكلمات.

«أحدهم، وكان شيخًا وعارفًا بالله، كان راكبًا على ظهر حماره بمحاذاة الجبل. ما إن رأى حماره قبّة الباهوت حتى نهق. سقط كسفٌ من الجبل على رأس العارف وحماره وماتا في لمح البصر».

التقط أنفاسه وبلع ريقه «لا تُرفع الأصوات أمام الباهوت».

قبل أذان الفجر، غفا منصور، بالفعل. في نومه، قالت له أمّه:

«حذران أجمل بلادٍ في العالم».

كانت حذران هادئة بلا أسرار. هنالك كانوا يصفونه بالأعرج،

وهذا كلّ ما في الأمر. وقبل ثمانية أعوام، قالت له سيّدة عجوز «إذا اتّجهت بين الشمال والغرب ستجد العارف بالله أحمد بن علوان». وها قد وجده. ولكنّه، قال لنفسه، لم يتبع النهر بحثًا عن ابن علوان، بل عن منصور الأعرج.

وقف رجل متوسّط الطول، لا تبين ملامحه، أمام جسد الشابّ النائم وضربه على قدمه برفق. اعتدل منصور، ثم وقف أمام الرجل.

«اذهب، وتوضّأ».

بعد حوالى ساعتين، كانا يتناولان فطورهما معًا في منزل لا يبعد كثيرًا عن مسجد الباهوت وضريحه. قال له المضيف إنّ اسمه هزّاع الحارس، وإنّه نزل بذلك المكان قبل أكثر من ثلاثين عامًا قادمًا من صنعاء مع والده. توفّي والده قبل عشرة أعوام بعد أن استيقظ من نومه وتقيّأ دمًا حتى شروق الشمس. مع الشروق، أخذوه جثّة هامدة إلى ضريح الباهوت.

«كنت بحاجة إلى مزيد من العمر لأقضيه مع والدي، لكنّ الباهوت كان بلا حيلة»، قال وهو يدسّ أصابعه في مدَرَةٍ تغلي بالفتّة والسمن البلدي واللبن.

«تُرى أكان هذا الرجل ليَتَحدّث عن أمّه بمثل ذلك الحياد الذي يقصّ به موت والده؟» سأل منصور نفسه وتذكّر كيف أنّه لم يتوسَّل أمام الباهوت لأجل والده، أو لم يتوسَّل كما يجب.

كان منصور ممزَّقًا، فهو قادم منذ يومين فقط. وسرعان ما وجد المأوى والأصدقاء. بعد ليلة لم تمنحه ما يكفي من السكينة، ها هو يأكل فتّة بالسمن البلدي والحبّة السوداء ويشرب قهوة بالزنجبيل. بادره هزّاع بعرض سخيّ:

«إذا شئت ابق عندي. بيتي واسع، أسكن هُنا مع زوجتي، وأرملة رجل من القرية سقط من أعلى المنارة في الثلاثين من شعبان الفائت. أراد أن يرى هلال رمضان».

دخل الرجل والشابّ إلى غرفة صغيرة ذات نافذة تطلّ على المسجد. من تلك الغرفة، يرى المرء قبّتيّ المسجد الكبيرتين والقباب الصغيرة كلّها. استنشق منصور رائحة غريبة، فقال له هزّاع إنّها صادرة من غرفة الطين المجاورة «مزيج من العرَق والطين، سرّ الحياة»، وذهب منصور يهزّ رأسه ببلاهة أدخلت الشفقة إلى قلب هزّاع.

«كلُّنا غرباء على يفرُس، الباهوت وأنت وأنا والأرملة»، قال هزّاع. كما لو كان يريد أن يستمع لمثل هذه الحقائق، سأله منصور «حتى الباهوت؟». هزّ الرجل رأسه مانحًا قلب منصور المعذَّب يقينًا ندَرَ أن يعثر عليه رجل جاء مع النهر.

«حتى الباهوت، عليه السلام، عشق امرأةً من يفرُس، فساقته خلفها حتى هذا المكان. كان يمشي أمام الناس في تعز مثل الربّ، ويمشي خلف المرأة في الطريق إلى يفرس مثل البعير. كان أبوه عالمًا، أيضًا، ومقرّبًا من السلطان. تنازع السلطان وامرأة على أسرار الباهوت، ففازت به المرأة. عاش هُنا يُعلِّم الناس الدِّين ويكتب شعرًا عن الحبّ والخمر. يقول مريدوه إنّه كان يقصد الله، وكان عليل الحبّ الإلٰهي. سخر أبي من كلّ هذا. قال إنّه كان يقصد الحبّ والخمر، وكان عليل امرأة واحدة أو أكثر».

وكانت عرجة منصور قادرة على أن تحمله في الجبال، وتسلك به طريق السيل. لكن.. أمام كلّ هذه الأسرار، كان قلبُ منصور وخبرته عاجِزَين.. عاجزين.

٧

في شهر ربيع الأوّل من العام الهجري التالي، وفد الناس إلى مسجد الباهوت أحمد بن علوان. ملأت أناشيدهم الوادي والسفح، وكان منصور يراقبهم ويعدّ مواشيهم. سمع منصور في صدره صوتًا يقول له إنّه سيروح معهم. ولأنّهم قادمون من كلّ جهة، لم يدر منصور أيُّ الجهات ستأخذه.

كان سوقًا كبيرًا وكان أعلى ما فيه الأناشيد.

مضى أقلّ من عام على منصور الأعرج في صحبة الرجلين: الباهوت وهزّاع الحارس. زاد عُمْرُه عامًا، وعرف الجبل جيّدًا، الجبل وليل الجبل. رأى أناسًا من كلّ القرى يتوافدون على الباهوت على مدار أيّام السنة. اهتدى كلّ زائر إلى عرجة منصور، ولم يسألوه عن اسمِه.

قال لهزّاع في عيد الأضحى الفائت، قبل منتصف الليل، إنّ عرجته أصبحت القبّة الثالثة في القرية. ضحك هزّاع بصوت جبليّ

خشن وودود، ثم سعَل بحدّة حتى اعتقد منصور أنّ صوته لن يسمع بعد ذلك. كان الرجلان يخزّنان القات، قوت الصالحين كما يسمّيه هزّاع. لم يكن في يفرُس من أحد يجرؤ على أن يمضغ القات علانيّة سواهما. تحديدًا منذ صبّ الباهوت ابن علوان جامّ غضبه على الذين يمضغون الحشيشة المسكِرة، أولئك الذين سيخطئهم نور الله، وكان ذلك قبل مئات السنين. مع الأيّام، عاد الناس إلى الشجرة المسكرة، وكما لو كانوا يعتذرون من القطب النائم تحت القبّة راحوا يخزّنون القات في الظلام، وفي الليل، وفي الغرف. أي في الظلمات الثلاث، إذا استعرنا تعبير هزّاع الحارِس.

«اسقني» قال هزّاع، فأمسك منصور برأسه وكانت عيناه محمرّتين وجاحظتين وسقاه. توقّف سعال الرجل أخيرًا. مسح فمه بشاله الرمادي، ثم بصق في المتفَل، وهي آنيّة نحاسيّة يستخدمها المخزّنون للبصاق.

قال لمنصور كأنّما يريد أن يفشي له سرًّا «عرجتك هي أشرف ما دخل هذه القرية منذ عشرات السنين، منذ وطأها المشرِق لأوّل مرّة».

ثم ذهب يقصّ عليه حكاية الحمارين المشرِق والشمال، من العام ١٩١٨، وكيف نهق المشرق في الليلة الأولى موجوعًا لفقد رفيقه الذي سقط على بعد مئات الخطوات من القرية. وكما لو كان يكتشف عالمًا جديدًا، ذهب الحمار الذي يحمِل اسم المشرِق ينهق بأكثر من نغمة، كأنّه ينشد. كان صوته يضرب الجبل ثم يعود إلى أذنيه، فيُخيّل للحمار أنّ حمير الجبل خرجت معه لتنعي شقيقه، فقادها بصوته بعيدًا وصار ينهق من قلبِه حتى أدركت صوته البحّة والتعب. كان ممتنًّا لحمير ذلك المكان، حمير الجبل التي أدركت ألمه في الظلام، وشيّعت شقيقه في رحلته الأخيرة. ربّت الرجل الكبير على ظهر حِماره ثم تركه يؤنس ذاته

ويخلق عالمه بصوته ويروّض ليله الجديد. أحسّ الحمار بالطمأنينة، فسَرَت تلك إلى قلبيّ الرجلين، وغاصا في نوم عميق جوار المسجد حتى النجمة. لم يغضب الباهوت من المشرِق لأنّه نهق أمامه، ولم يتحرّك جبلٌ في القرية. «الباهوت يقدّر الأحزان»، قال هزّاع الحارس بإيمان عميق.

حوالى أربعين عامًا تفصل بين الرجلين، هزّاع ومنصور. إلى درجة أنّ منصورًا بدأ يشبه «هزّاع» في شبابه، أمّا الأخير فتقمّص والده.

«غدًا سنخزّن القات مع عبد العليم الشامي، أكبر محبّيّ الباهوت وصديق السنوات الطويلة».

ـ «ومن هو عبد العليم الشامي؟» سأل منصور.

ـ «رجل فاضل. من آل البيت. يأتي إلى يفرُس من وقت لآخر ليزور ضريح الباهوت. الباهوت أيضًا من آل البيت كما تعلم».

«وما معنى أن يكون الرجل من آل البيت؟»

«آل البيت؟ أنت لا تعرف؟ هم أبناء النبيّ وأحفاده».

ولم يكن منصور يعرف أشياء كثيرة حتى عن النبيّ ذاته. وكان قد سمع في سنوات عمره الكثير عن النبي الذي كان يحبّ الناس ويخوض الغزوات. وعندما سمع من هزّاع الحارس أنّ رجلاً من آل النبيّ سيأتي قريبًا، ضرب الخوف قدميه، وتذكّر الغزوات وتخيّل السيوف، وتمنّى أن لا يأتي ذلك الرجل، فهو يشعر بالتعب وقد أحبّ المكان ولا يريد أن يهرُب مجدّدًا. وقد ربط بالأمس القريب بين بنات النبيّ وسقوط رأس الثُلايا، ولم يستطع أن يتذكّر الأمر سوى على تلك الطريقة، وبقي ذلك السرّ في أعماقه، ولم يكن يعلم ما إذا كان يفكّر بطريقة صحيحة أم لا. كان بحاجة إلى الراحة والهدوء، وتلك الكلمة

التي سمعها من هزّاع الحارس عجزت عن منحه ما يصبو إليه.

«لحظات من الصمت قضاها منصور في تخيُّل معنى كلمة آل البيت».

«من أين يأتي عبد العليم الشامي؟»

«يأتي من قرية الحاجّ إبراهيم، من أعلى الجبل. أعلى قمّة في الجبل. زرتها قبل خمس سنوات لآخر مرّة. لا أدري لماذا لم يسكن الباهوت في قرية الحاجّ واختار هذا السفح الواطئ. يبدو أنّه كان يخاف من البحر. أو ربّما، كما قلتُ لك، إنّها امرأة. وعلى كلّ حال، لقد فعَلت تلك المرأة بنا خيرًا».

«وهل هي قرية على البحر؟».

«لا، ليست على البحر. لكنّ المرء يحسّ رائحة البحر هناك. لا أدري، هي رائحة دافئة تضرب القرية في الليل، يُقال إنّها قادمة من البحر. من قرية الحاجّ لن ترى جبالاً إذا نظرت جهة الغرب. يغيب بصرك ولا يلتقي بشيء. عندما ينتهي البصر يكون هناك البحر، هكذا علّمتنا الجبال. وهكذا دائمًا. ما إن يغِب بصرُك وتختفي كلّ الأشياء تأكَّد أنّ هنالك بحرًا، وإذا مضيت في طريقك ستلتقيه أو ستكون بمحاذاته».

«أصدُقك القول، أشعر بالاختناق هنا. مضيتُ عامًا كاملاً بين جبلين، حفظت الأناشيد والأوراد، ورأيت أناسًا من كلّ مكان. روحي معذّبة، أشعر باختناق. فكَّرت بتسلُّق الجبل إلى القمَّة والمكوث هناك لبعض الوقت. أحبّ هذا المكان، ولا أريد أن أتركه، وليتني أستنشق رائحة البحر لبضعة أيّام وأعود»، قال الشابّ منصور الأعرج الذي صار يبلغ من العمر ١٩ عامًا.

لم يقل هزّاع شيئًا.

دخلت السيّدة الأرملة، وكان قد مضى على إقامتها لديه عامان، ووضعت بعض الجمر في مداعَته. كان ليل يفرُس وحيدًا بالخارج، يقف عند حدود النافذة الصغيرة إلى الخلف من رأس هزّاع الحارس. أمّا هزّاع فمنذ عشرات السنين وهو يمارس تقواه على طريقته. يحضر الصلوات في مسجد الباهوت بن علوان، ثم يعود إلى داره. بنى غرفة من الطين، وهناك كان يضع الكرمة والزبيب ويهرسه بقدميه ثم يضعه في الماء لأيّام. يخلطه بينسون وأحيانًا بأشجار بادية يفرس مثل الشمَار وغيره. يضع الخليط في زير من الخزف لأيّام، بعيدًا عن الشمس وتحت هواء الغرفة المخمّر والمكتوم. كان يبيع مشروبه ذلك لزائريّ مسجد بن علوان وضريحه، وكان الشيخ عبد العليم الشامي أهمّ زبائنه وأتقاهُم.

كان، على المستوى الشخصي، مقتصدًا في شرب خمرته، ولا يشربها إلّا في طقوس خاصّة. وكان يشرب القليل من الخمر حتى يبلغ من العمر ما لم يبلغه والده. هو لم يقل ذلك، لكنّنا استطعنا استخلاص تلك الغريزة من كلماته.

تعلّم منصور الأعرج طقوس هزّاع الحارس، وشربا الخمر عشرات المرّات معًا، على طريقة هزّاع «الخمرة سرّ، والسرّ لا يطرق إلّا في الليالي وبين الجدران، ويُقتصد فيه. الإسراف يقتل الأسرار».

وكان منصور الأعرج يقول لنفسه من وقت لآخر إنّه وجد في خمرة صديقه هزّاع الحارس ضالّته.

وفي ليلة صافية لا نجوم في سمائها ولا جنّ في جبالها، قالت الأرملة لهزّاع الحارس «آه يا منصور» وكانت مغمضة العينين، وكانت

ساقاها على كتفيّ هزّاع، وكان يمكن رؤية الحنّاء على قدميها وجرحٍ قديم على الكتف اليُمنى لهزّاع. صفعها الرجل بوحشيّة حتى سال الدم من أذنها اليسرى. قام هزّاع وتركها عارية ومشلولة وذهب يبحث عن منصور. بعد أيّام، اعتذر هزّاع لمنصور الأعرج بعد أن رأى عينيه الاثنتين لا تزالان متورِّمتين، وشفته السفلى زرقاء. طلب منه ألّا يشرب من البئر الذي يشرب منه سيّده. هكذا قال هزّاع، ولم يجد منصور صعوبة تذكر في فهم المعنى كاملاً.

قبل منصور الاعتذار دون كلمات، ثم قرّر أن يصارح المضيف:

«من الآن فصاعدًا لا ينبغي أن نشرب، نحن الإثنين معًا، لا بدّ أن يحرس أحدُنا الآخر. الخمرة سرّ، كما قلتَ لي، ولا بدّ أن يحرسه أحدُنا».

أُعجب هزّاع الحارس بما سمعه من الفتى، وصفع منصور على مؤخّرة رأسه ليبيّن له مدى إعجابه. أمّا الأرملة، فقد اعتذرت من هزّاع على طريقتها مستخدمة روائحها وكلّ منحنيات جسدها البضّ. وعندما أنهكته لأكثر من ساعة، طلبت منه أن يركض في الديوان عاريًا ويصرخ يا باهوت.. ففعل. ثم وضعت ردفيها العاريين على حافّة النافذة وفتحت فخذيها، وطلبت منه أن يقرأ دعاء القنوت ويشهق.. ففعل أكثر من ذلك.

وفي مساء اليوم التالي، رعش هزّاع الحارس رأسه، بينما كان في سهرة هادئة مع منصور، محاولاً إفراغ رأسه من أحداث البارحة، وبدا عاجزًا، فتعايش مع عبوديّته القصيرة وأعجب بملِكته الأرملة. ولم يزد على أن قال «الشيطانة». ثم قذف جرعة عميقة من الماء إلى أحشائه، وضرب على ركبة منصور الأعرج، وأنشدا معًا لجارهما الباهوت:

يتثنّى ومن رآه تثنّى وَحَميم الأليم لا يَستَريح
مزج الخمر بالضنى فاحتَساها وَسَقاها المحبّ فهو يصيح
خندريس لنا حَلال مباح وَعلى غيرنا دم مسفوح
هاتها هاتها وخذها وخذها وأدرها عَلى الجبال تنوح

في ثاني أيّام العيد، في وقت يعادل الساعة العاشرة ليلاً على أفضل تقدير، كان مجلس هزّاع الحارس يعجّ بحوالى عشرة أشخاص، وكان السيّد عبد العليم الشامي في ركن المجلس، يضع على رأسه عمامة لونها ما بين الأبيض والكاكي، وعلى خنصره الأيمن خاتمًا من عقيق أسود اللون، وله سنّان من ذهب لامع في فكّه الأسفل. استطاع منصور أن يستخلص من ملامح الرجل طيبة ما، أو على الأقلّ خمّن أنّ هذا السيّد الذي يضحك أكثر ممّا يتكلّم قد لا يهتدي إلى عرجته.

ربّما أكثر من ذلك، فكّر منصور، قد يراها امتيازًا وسرًّا. يبدو متصوّفًا، والصوفيّ يرى الأسرار في الأشياء المكسورة، ويستخرج المعنى من الآلام. لم يكن منصور يفلسف الصوفيّة، كان يسترجع ملاحظات عام كامل في هذه البقعة الغريبة.

دخلت السيّدة الأرملة وغيّرت رأس المداعة أمام الشيخ عبد العليم. ارتبكت السيّدة، حتى الآن لا نعرف اسمها، فسقطت جمرة على الأرض. كانت الأرض مكسوَّة بغطاء من السعف. التقطها الشيخ الشامي بسرعة ووضعها على المداعة، ولم ينظر إلى إصبعه. تدفّق دم غزير على خدّ المرأة وتمنّت لو أنّها كانت جمرة، وأنّ هذا الرجل الذي يملأ عطره المكان التقطها بتلك السرعة والعناية. كأنّ هزّاع الحارس، الرجل الذي يفهم العالم الداخلي للمرأة منذ كان أبوه يجلد ظهر التركيّة المرحومة حفيظة يلدريم في صنعاء قبل أكثر من نصف

قرن، قد لاحظ ارتباك الأرملة الرشيقة.

«البارحة أنشدنا، أنا ومنصور، يتثنّى للباهوت»

«أفضّلُ: والصمت بين العارفين كلامُ» قال الشامي.

ضرب المرأة برقٌ أخضر في ساقيها، فكادت تتعثّر. انسحبت واختفت في الخباء، وكان صوت عبد العليم الشامي يأتيها نقيًا وولهانًا من مكان ما في ركن الديوان، وكانوا من خلفه يترنّحون كأنّما سكرة غمرتهم. اعتادوا، هكذا، منذ مئات السنين على أن تسكرهم أناشيد الباهوت. واعتادت النساء على قصائد الباهوت، يجدنَ فيها رسائل خاصّة وإشارات ومواعيد. بالنسبة للنساء في الجبل كان الباهوت رسول الغرام، وبالنسبة للرجال كان الباهوت صانع الخمر الأعظم، وبالنسبة للمريدين الطيِّبين كان الباهوت خزينة الأسرار كلّها.

نظرُ المحبّ إلى المحبّ سلامُ   والصمت بين العارفين كلامُ
جمعوا العبارة بالإشارة بينهم   وتوافقت منهم بها الأفهامُ
وتقابلت وتعاشقت وتعانقت   أسرارهم وتفرّقت أجسامُ
هذا هناك وذا هناك إذا ترى   ولسرّ ذاك بسرّ ذا إلمامُ

قبل الفجر، كان الصمت سلطان المكان. قال الشامي إنّه سيغادر مع مرافقيه عند الشروق. التفت إليه منصور، وكان سرحانًا ومنفردًا في أقصى مكان في الديوان. كأنّه سمع نداءً من أعلى الجبل. في طفولته، نصحته سيّدة عجوز بأن يتبع السيل أو النهر. كان الشامي، كما لاحظه طيلة الليلة، نهرًا أو سيلاً أو مزيجًا من الاثنين. بدا خاتم العقيق في كفّه اليمنى نبعًا، حتى إنّ منصور، في غمرة ذهوله وحيرته، سمع خريرًا في ذلك الخاتم، ورأى أشياء أخرى لا يحبّ تذكّرها.

في الليلة الماضية، سمع الشامي عن كلّ الأحداث التي جرت في يفرُس خلال عام كامل وأكثر. كان هزّاع الحارس يقصّ ويضحك، وكان السنّان الذهبيّان للشامي يلمعان، ولم يكن الحاضرون ينتظرون، في تلك الساعات المغمورة بالنشوة والأسرار وليل يفرُس الفريد، ما هو أكثر جلالاً من ذلك.

«اشتكى لي منصور الأعرج البارحة من ضيق في صدره. لو أردت أن تأخذه معك يا شيخ، يتعالج ثم يؤوب إلينا، فافعل»، قال هزّاع الحارس وهو يتحاشى النظر إلى وجه الأعرج.

أضاف:

«قبل عام من الآن، كانت الحياة تملأ كلماته. أصبح يذوي ويذبل مع الأيّام. من الغرابة أنّ الباهوت لم يعالج روح الأعرج».

لا يحبّ منصور الكلام الكثير. يعتقد أنّه سيتحدّث كثيرًا، لكن يومًا ما وفي أماكن أخرى.

رحّب عبد العليم الشامي بالفكرة.

وفي ظهيرة اليوم التالي، كان الرجال قد صاروا على مسافة ساعة من قرية الحاجّ إبراهيم بن الحاجّ إبراهيم، تلك التي تطلّ على البحر والجبل والغمام. وكان منصور مرتبكًا وقلقًا، يخشى أن تكون تلك الرحلة قد جاءت قبل أوانِها.

٨

لم يدخل منصور الأعرج قرية الحاجّ قبل العام ١٩٦٢.

ففي ذلك الصباح من العام ١٩٥٦، اقترب منصور من القرية بصحبة شيخها عبد العليم الشامي. كان يحمل كيسًا كبيرًا على ظهره يخصّ الشيخ، ملأه من سوق يفرُس، من المهرجان. كان يسمع أصوات أوانٍ زجاجيّة على ظهره.

استمرَّت الرحلة نهارًا كاملاً. كان الشيخ يتحدَّث كثيرًا، على غير عادته. في الأسفار فقط، يتحدّث الشيخ الشامي أكثر من الآخرين. أمّا في مجلسه اليومي في القرية، فيكتفي بالتبسّم والإشارات وبعض الكلمات. قال لرفاقه إنّ قريته أجمل القُرى على الجبل، وإنّها بلا نهر. وإنّها محروسة.

«هناك ما هو أروع من النهر. فبعد المطر، نصعد إلى أسطح المنازل بين المغرب العشاء ونستمع إلى هدير السيول»، قال الشامي.

هُنا تدخّل المرافقون الثلاثة ليؤكِّدوا كلام شيخهم قائلين، واحدًا

بعد الآخر، إنّ السيول التي تسمعها القرية في الصيف تُدخل السكينة إلى الروح وتجلب البركة وتطرد الشياطين. وأنّ أروع تخزينات القات تكون في الليالي التي تواصل فيها السيول هديرها حتى منتصف الليل.

«نسمعها فقط، ولا نراها. لم نرَ السيل من قبل»

«اعتقد أنّ الذّكْر الذي نقوله كلّ ليلة هو ما يطرد الشياطين. السيول أيضًا، لكنّ الأهمّ هو الذكر»، علّق الشامي على كلامهم وهو يلتقط الأنفاس رافضًا أن تنسب كلّ البرَكة للسيول، ويُستبعد ديوانه.

ارتاح الرجالُ قليلاً، وخطرَ لمنصور أن يسأل الشيخ عن محتوى الكيس، لكنّه بقي صامتًا لبعض الوقت كما لو أنّه يبحث عن الطريقة المُثلى لطرح سؤال كهذا. فهم عبد العليم الشامي ما يدور في رأس منصور، فأجابه «كتاب المهرجان لابن علوان، وأمورٌ أخرى». مضت دقائق. قال الشامي وهو يرمي ببصره إلى الأعلى «هيّا بنا يا أعرج».

اقترب الرجال من القرية، فرآها منصور، وكانت مغطّاة بالغمام. كان منظرًا بديعًا ومذهلاً، حتى إنّ منصور ارتجف وفقد الكلمات، وضربته رعشة ثم رغبة في التبوّل. إلى الخلف من حجرة كبيرة على بعد أمتار من رفاقه، تبوّل منصور في اتّجاه الغرب وكان مغمض العينين. رأى الماء الذي أراقه للتوّ وهو يضرب أعلى قمّة في الجبل ثم يشقّ طريقه إلى البحر. ومن البحر البعيد، جاءته رائحة زرقاء. تذكّر امرأة خبّرته عن البحر في صباه المبكّر، فارتعشت أصابعه وانقطع بوله. حتى إنّ عضوه انكمش كلّيًا، فجعل يسحبه إلى الخارج بكفّيه الاثنتين، وهو يردّد بصوت متقطّع يا باااا... هُووو. تتتت. وبينما كان يفعل ذلك، رأى شعرات كفّيه تنتصب كأنّها شوك وأحسّ بوخز على فخذيه من الخلف. كان يرتدي ثوبًا طويلاً أزرق، لا يزال أهل

جبل حبشي يُطلقون عليه اسم «الزنّة» حتى الساعة. كان ثوبًا غليظًا يجلبه الباعة من أسواق مدينة تعِز.

«تأخّرت يا أعرج»، قال الشامي. وبدا منصور مرتبِكًا ووجلاً.

«سأعود إلى يفرُس»، قال منصور بصلابة مفاجئة. ولم تمض سوى ثوان قليلة حتى كان الرجال الأربعة يقفون خلف ظهره وكان يهبط في طريقه الطويل. اختفى ظهرُه الأزرق، وغاب في المنعطفات والدروب الوعرة.

«دلّتني روح الباهوت. تدفّق الظلام فجأة من كلّ الجبال ووجدت نفسي أعزل في طريق لا أعرفه. لا مصابيح في الجبال، ولا روائح. في تلك اللحظة، تذكّرتُ أنّي أعرج. لم يمض سوى وقت قصير حتى أحسست بدم في ساقي اليُمنى. تحسَّسته في الظلام، ثم واصلتُ السير. رأيت البرق يضرب جبل صبر بوحشيّة. غمرتني الأمطار، والرياح. لكنَّ روح الباهوت حرستني. يا باهوووووت، صحتُ مرّتين أو أكثر. لم أكن أحمل سلاحًا. في الطريق، وجدتُ خشبة صغيرة فاتّخذتها عصا، وتحسَّستُ بها الطريق. ضربني الريح والمطر في وجهي حتى فقدت القدرة على التنفُّس للحظات. لاح لي في البرق كِنان، كأنّه لرعاة أو لمسافرين. ما إن اقتربتُ منه حتى سمعتُ صوتًا، فصرختُ يا باهوت، وضربت بالعصا يمينًا ويسارًا وأنا لا أرى شيئًا. لا شكّ أنّه الطاهش، ويبدو أنه كان يشعر بالجوع والبرد. صرخت هاااااااااا. ملأت الجبل والآكام كلّها بصراخي. خُيّل إليّ أنّ المطر توقّف للحظات، وأنّ الريح تجمّدت. ردّ عليّ الطاهش بزمجرة، لكنّه كان واهنًا. كان واهنًا وكنتُ أعرج. كنّا جائعين، وبردانين، يضربنا المطر والظلام، وليس من سوانا. توقّفتُ عن المشي. ظللت واقفًا في مكاني إلى أن انحسر المطر. اختفت كلّ الأصوات، وسمعتُ السيول

تهدر من بعيد. هبطت إلى الأسفل، رائحة الباهوت والسيول دلّتني».

«... لم يحدث أن عبرتُ الليل بلا وجهة سوى مرّة واحدة، عندما كنت في العاشرة. توفي أبي نهار ذلك اليوم، فمَسَحتْ القرية كلّها على رأسي. كان يومًا رهيبًا، منحوني فيه لقب يتيم. وهكذا أصبحتُ يتيمًا وأعرج منذ ذلك المساء. أخذني جارُنا، وكان رجلاً يملك ثورين ويحرث نصف وادي حذران، إلى المسجد. ألقى الإمام موعظة صغيرة عن الموت، وعن حسن الختام. فهمت من كلامه أنّه يقول للقرية لا تموتوا مثل قاسم، ولا تكونوا مثله. غادرتُ المسجد مسرعًا، وكانت الدموع قد وصلت إلى صدري. ظللتُ أمشي طيلة الليل. قبل الفجر، وجدتُ نفسي أمام بوّابة تعِز. أمسكت بباب المدينة ثم أسندت ظهري إليه وغفوت. لا أدري كم مضى عليّ من الوقت، ربّما ليس كثيرًا. اقترب كلبان شريدان منّي وجعلا يتشمَّمان قدميَّ. لقد تعرّفا على عرجتي كما يفعل كلّ الخلق، فهي أوّل ما يظهر منّي. صرختُ حتى أفزعت المدينة كلّها، وفتح لي الحارسان الباب وأدخلاني. صفعني أحدهم، لكنّ الآخر خلّصني منه وأدخلني إلى غرفة صغيرة جوار الباب، من الواضح أنّها المكان الذي يبيت فيه. غطّاني بملاءة نتنة وأجلسني إلى جواره. كان يتحسَّس دُبُري بأصابعه وأنا أرتجف من البرد والخوف. لم أحرِّك ساكنًا. تدفّق الأذان إلى سمعي، أذان الفجر، من كلّ أرجاء المدينة كما لو أنّ تعِز أفاقت فجأة من سُبات. ظلّ الرجل يتحسَّس دبري ويردِّد كلمات الأذان مع تعِز. صاح به رفيقه فخرج إليه، ثم اختفيا بعد ذلك. رأيتهما يحملان فانوسًا ويختفيان. ربّما كانا ذاهبين إلى الصلاة. استغللت الفرصة وفررتُ. كنتُ في العاشرة من عمري، حملتني عرجتي في ذلك الفجر حتى أطراف المدينة. لم يمض وقت طويل حتى فتحت الشمس كلّ الأبواب».

صبيحة اليوم التالي، في يفرُس، كان هزّاع الحارس يتأمّل ملامح الشابّ من كلّ الجهات مسكونًا بالغبطة والشكّ معًا، بينما يروي منصور قصّته.

بقي منصور منتصبًا في مكانه، عيناه على قبّتي الباهوت ابن علوان وظهره لباب المنزل. غمرته رائحة خبز ساخن قادمة من الداخل، ويبدو أنّ امرأةً كانت في تلك الأثناء تضع الحبّة السوداء والسمن الحارّ على الخبز الساخن. شعرت عظام الأعرج بالدفء، ولم يقُل شيئًا طيلة ذلك النهار، ولم ينم.

عندما غربت شمس ذلك اليوم، خرج هزّاع الحارس من غرفته ووجد منصور لا يزال واقفًا يعاين قبّة الباهوت.

«لمجرَّد أن عرفت أنّك كنت تحمل كتاب المهرجان، قرّرت العودة؟» سأله هزّاع ولم يجد جوابًا.

ذهب هزّاع يثرثر، ويتساءل ويشكّ، ويهزّ رأسه ويضرب كفّيه.

لا نملك تفسيرًا مقنعًا عن السبب الذي دفع منصور الأعرج للعودة إلى يفرُس بعد أن بدت له ملامح قرية الحاجّ إبراهيم تحت جنح الغمام. لكنّنا نعرف أنّ منصور كان يفرّ من عرجته، وكان يبحث عن بلد لا يرى عرجته أو يغضّ الطرف عنها. كانت الشمسُ أمّه، لكن قرية الحاجّ بدت له من سلالة الغمام، بلا شمس. أخبروه عن السيول، وهو ابنُ نهر صغير في حذران. وفي طفولته، كان شيخ قريته يستعرض قوّته بمهرجان صغير لمناكحة الثيران، وكان يستطيع ألّا يرى ذلك، رغم أنّه لم يفعل ذلك قطّ. بَيْدَ أنّ المهرجان الذي حمله على ظهره ذلك النهار كان شيئًا آخر. دعونا لا ننسَ شيئًا مهمًّا. كان منصور قليل الكلام وكانت عيناه صغيرتين ولامعتين، وكان يلبس قميصًا طويلاً

أزرق حتى منتصف ساقيه ويربط خاصرته بشال أبيض سميك ويترك رأسه حاسرًا. عندما سأل رفاقه، ذلك النهار، في طريقهم إلى قرية الحاجّ، عن كيف سيحصل على قميص آخر عندما يبلى قميصه، اكتفوا بهزّ رؤوسهم.

أكمل منصور الأعرج العيش برفقة هزّاع الحارس، وكان الأخير سعيدًا «هذا أفضل». اقترب منصور من العشرين عامًا وهزّاع من الستّين. مرّت الأيّام كما هي، متطابقة بلا تغيير. كان عدد البيوت في يفرُس والقرى المجاورة يزيد ببطء، ولم تقع أحداث كثيرة تستحقّ الذكر، باستثناء المهرجانات السنويّة، في شهر ربيع، على شرف الباهوت. كان أصحاب الأبقار يعرضون بضاعتهم، وكذلك الحمّارون. كما يشهد سوق القماش الموقّت إقبالاً كبيرًا.

أمطار في الربيع والصيف، بردٌ في الشتاء، ولا أحد يعرفُ شيئًا عمّا يجري خارج القرية. ومن آن لآخر، يحمل زوّار ضريح الباهوت أخبارًا عن ثورة في تعز، أو في صنعاء. وغالبًا ما تنتهي تلك الأخبار بجملة واحدة «مولانا الإمام أخمَد الفتنة».

في واحد من صباحات يفرُس، وُجِد حارس المسجد ميّتًا جوار الضريح. قيل قرصته حيّة. لكنّ الرواية التي نالت أكبر قدر من الثقة هي تلك التي تقول إنّ الباهوت تجلّى له في الليل، ربّما أراد منه أن يبلِّغ القرية أمرًا ما، لكنّ الحارس الضعيف والجبان لم يتحمّل الموقف، فتوقّف قلبُه للتوّ. غالبًا ما يُقال في يفرُس: في التوّ واللحظة، لتأكيد أنّ الحارس مات فورًا. أبدِل الحارس بآخر وجد ميّتًا بعد أشهر في المكان نفسه. ثم مات الحارس الثالث في المكان نفسه. بعد ذلك، جاء حارس رابع بقي في القرية مدى الحياة. كان يملك جملين وناقة. جاء من قرية بعيدة لزيارة الباهوت، فوافقت القرية على

العرض الذي قدّمه وأصبح حارسًا. كان له اسمٌ طويل لكنّه بقي «الحارس». كان ينام بين جمَليه وتبْرُكُ الناقة جهة قدميه، وذلك بالقرب من باب المسجد. وفي الصباح، يحلب ناقته ثم يخلط لبنها بقليل من بولها ويسمّي ذلك الشراب «زرير»، ولم يكن أحد في القرية، أو من الزوّار، يرغب في تجربة مشروبه. يدفّئ شرابه الشهيّ على نار موقد في العراء، ثم يدخّنه، ويشربه دفعة واحدة وهو مغمض العينين. قالت القرية إنّ عظامه، لذلك السبب، أصبحت أقوى من صخور جبل حبشي كلّها، وأنّ الباهوت ربّما تجلّى له عشرات المرّات، وقد وقف أمام الباهوت على عظام صلبة، لكنّه كان رجلاً لا يحبّ الكلام الكثير. وكان يحفظ سرّ الباهوت، ولا يفشيها. وعلى كلّ حال، تقول القرية، لو أنّ أمورًا جليلة حدثت فإنّ الحارس كان سيقُول.

مع الأيّام، لاحظ منصور أنّ معلّمه هزّاع الحارس يفقد الذاكرة تدريجيًّا. تحديدًا الذاكرة البعيدة. من آن لآخر يتذكّر أشياء من طفولته، يتذكّر فقط الأتراك. ضعف بصره بصورة مفاجئة، وانتقلت رعشة شفتيه إلى أصابعه. أصبح واضحًا أنّ هزّاع الحارس استبدل ذاكرته المفقودة بذاكرة جديدة لأحداث لم تقع. لكن مجلسه لم يتغيّر. وفي أغلب ليالي الأسبوع، كان يسامر منصور الأعرج، يخزّنان القات معًا، وكانت الشابّة الأرملة، للأسف لم نتعرّف على اسمِها، تزوّدهما كالعادة بما يحتاجانه. الذاكرة الجديدة لهزّاع الحارس أدهشت منصور الأعرج وأصابته بألم في قلبه. كانت حياة موازية كُلّيًّا. وكان الرجل، هزّاع، يروي أحداثًا قريبة وقصصًا لم تحدث قطّ. يتسامر بها ويُسامر الآخرين. وأحيانًا يمسك بوري المداعة، الرأس الذي يوضع عليه الجمر، معتقدًا أنّه قِرْبة ماء، لكنَّ منصور يدركه في الوقت المناسب. في مرّة، حدث أن وقعت الجمرات على قميصه واحترق فخذه، وبقي

يصيح من الألم لأيّام. أنهت تلك الحادثة تاريخ المداعة في بيت هزّاع الحارس إلى الأبد. وكان ذلك قرارًا اتّخذته السيّدة الأرملة.

بقي، مع الأيّام، وحيدًا في مواجهة عالم لم يعد يتذكّر منه شيئًا، فيسامر نفسه بقصص وأحاديث. كان موقنًا بما يقوله، وما أن يُنهي القصّة حتى ينهال حلفًا. سقط الماضي كلّيًّا من ذاكرته، ثم سقط الحاضر. وظهرت عرجة كبيرة على مشية هزّاع الحارس، فاضطرّ للبقاء في بيته.

ثم ها هو يفقد اهتمامه بكلّ شيء. خرجت الأرملة الشابّة عن قضبانه، وأصبحت كلّيًّا ملكًا للأعرج التائه، الذي كان يغرق فيها في حلكة ليل القرية حتى يسمع هدير كلّ السيول البعيدة في قرية الحاجّ وأبعَد. وفي واحد من مهرجانات الربيع، خرجت الأرملة من الدار، وكانت رائحة البخُور لا تزال عالقة في لباسها القرويّ المزركش، وغابت في زحام الناس. وعندما انتهى المهرجان قبل الغروب، لم يُعثر لها على أثر. بحث عنها منصور لأيّام عديدة، ثم توقّف عن كلّ شيء. أمّا هزّاع الحارس، فقال إنّه لم يرها في حياته قطّ.

كانت زوجة هزّاع قد غادرت قبل ذلك بثلاثة أعوام، مع انتهاء مهرجان الربيع في العام ١٩٥٨، مصطحبة ابنتها. في تلك الليلة، طاف هزّاع الحارس بغرف بيته مرّات عديدة، ثم خرج في الظلام ووقف أمام داره لوقت طويل، لم يخرجه من شروده سوى نجمة الفجر. ثم بدأ يفقد ذاكرته رويدًا. ومع الأيّام، كانت ذاكرته قد أصبحت صفحة بيضاء.

بقي هزّاع الحارس ومنصور الأعرج، بعد أن غادرت المرأتان.

بعد مهرجان الربيع في ١٩٦٢ بحوالى شهرين، استيقظ الحارس

هزّاع من نومه صارخًا. كان يتقيّأ دمًا نقيَّ الحُمرة، كما رآه منصور على ضوء الفانوس. لم يدرِ منصور ماذا يفعل. ترك الرجل يغرق في دمه وهرول إلى مسجد الباهوت ابن علوان. عندما عاد مع حارس المسجد، كان هزّاع يرقد على بطنه ولم يكن شيء من جسمه يتحرّك. حمله الرجلان في الظلام إلى الضريح. التمسا له النجاة غير مخلصين، فقد كانا يعتقدان أنّه من الأفضل لكرامته، وقد أصبح شخصًا مجنونًا يعيش في عالم لا يحدُث، أن يلتحق بوالده عند سفح الجبل. سجّياه، وبعد صلاة الفجر، صلّى عليه عشرة من الرجال، ومع الشروق، قال الرجل الذي غسله إنّه وجد على صدره خطوطًا زرقاء كثيرة، معتقدًا أنّ برقًا ضربه وهو نائم. فقد كانت تلك الليلة مطيرة، وكان حمارُه ينهق طيلة الليل. كانت القرية تعتقد أنّ الصلاة تقي من البرق، ومن الأفاعي. هزّاع الحارس، ومنذ وقت ليس بالقصير، لم يعُد يُرى في مسجد الباهوت. «ترَكَ نفسه وحيدًا في مواجهة البرق، والبرْق قويّ، قويّ جدًّا»، أخبره الحارس وهو يحكّ ذيل ناقته الجائية.

في ذلك النهار، تحت سماء يفرُس الشاردة، دفنت القرية آخر رجلٍ رأى الأتراك.

٩

يقع وادي المُلْك بمحاذاة البحر الأحمر، ولا ندري متى مُنح ذلك الاسم لأوّل مرّة. وادٍ على البحر، ذلك ما جعله مميّزًا بالنسبة للقرويّين، ولسكّان البحر على السواء. يغطّي النخيل أغلب أرض الوادي، ويمنحه الظلّ. هذا ما جعل بشرة سكّان الوادي أقلّ سوادًا وقسوة من سكّان البحر في الأماكن الأخرى، ومنح نساء وادي الملك لمعة على الخدّين، وجعل أطراف شعرهنّ ناعمة وليّنة، وكان شعر وهيبة شاهدًا على ذلك. يعتمد السكّان على الزراعة والأسماك معًا، ولا ينتظرون أحدًا.

«إذا جفّ البحر سنأكل التمر، ولو سقط النخيل الليلة سنحتمي بالبحر من الغد»، كان الشيخ يتحدّث عن الوادي عندما أبصره منصور لأوّل مرّة، وكان اسمُه مُعين، ذو ندبة كبيرة على خدّه الأيسر.

«ضربني أحد لصوص البحر بالسيف، لكنّي قضيت عليهم كلّهم. كانت ليلة ليس فيها قمر ولا نجمة غير أنّي استطعتُ رؤيتهم. لقد رأيتهم بقلبي».

هكذا تحدّث شيخ وادي الملك لشيخ قرية الحاجّ عندما وصل ذلك الأخير إلى أراضي وادي المُلك تائهًا ومنتشيًا، وبصحبته رفيقه إسماعيل، ومنصور الأعرج وشخصان آخران.

كان ذلك أوّل اختبار بعيد المدى لسيّارة الشيخ عبد العليم الشامي، شيخ قرية الحاجّ. في الطريق إلى وادي الملك، كانت الشمس تصلِي سيّارة الشامي من الأعلى، وخطرت ببال الشيخ الشامي فكرة فلم يخفها عن رفاقه، لكن ما من سبيل لتحقيقها. أخرج يده اليسرى من النافذة، وكان يقود السيّارة بنفسه، ومسح على باب السيّارة من الخارج كما لو كان يعتذر لناقته تلك، كما قال. بيد أنّ رفيقه إسماعيل، وكان رجلاً ذا حكمة وخبرة في الحياة، وسبق أن زار الحجاز مرّتين أو ثلاث، قال بثقة إنّ فكرة الشيخ الشامي ليست سيّئة، وإنّ النصارى ربّما يخترعون في المستقبل مظلّة للسيّارة. وأخرج هو الآخر يده اليمنى وتحسَّس سقف السيّارة فوجده ملتهبًا، فأعاد يده ووضع أصابعه في فمه ثم ذهب يردِّد «ما بالكم بنار جهنّم».

«السيّارة تتألّم أيضًا، تتعب، تتوجّع. والشمس في الظهيرة لا ترحم. لم ترحم حتى الأنبياء، ولولا لطف الله لما وصل محمّد عليه الصلاة والسلام إلى الشام قطّ. ظلّلته الغمامة، أمّا الشمس فلا تحترم أحدًا».

قال إسماعيل، ثم سكت برهة. ودون أن يلتفت إلى الرجل الذي يقود السيّارة، ذهب يتداعى:

«جدّك. جدّك عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم. جدّك لم يسلم منها. انظر إليها كيف تضرب الأرض بوحشيّة. كأنّنا لسنا في شهرٍ حرام. حتى في الأشهر الحرُم».

كان الشامي يهزّ رأسه بجلال، فالرجل المحترم الذي يجلس إلى يمينه أحسّ بمعاناة سيّارته، وأيضًا مجّد أفكاره وتذكّر جدّه كما ينبغي.

قال منصور الأعرج، وكان يجلس في الخانة الخلفيّة مع مسلّحين آخرين يحملان بندقيّتين، إنّ الأرجاء كلّها فارغة ولا توجد سوى الشمس والأفاعي، وليس ثمّة من أمل في ظلّ قريب. عرض منصور على شيخه أن يغطّي، على الأقلّ، مقدّمة السيّارة بقميصه، ولم يسمع جوابًا.

ذهب الرجلان في المقدّمة بعيدًا في هجاء الشمس، وأحسّ منصور بغصّة. الرجلان يغتابان أمّه الشمس، ذلك القرص المتوهّج والطيّب الذي منحه سمار لونه، وثبّت عرجته في طفولته وبارك قدميه.

حدثت تلك الرحلة في نهار الرابع والعشرين من شهر يوليو ١٩٧٥، والذي وافق الخامس عشر من شهر رجب سنة ١٣٩٥ للهجرة. في أكثر الأشهر الحُرُم جلالاً ومهابة.

كان قد مضى حوالى ثلاثة أشهُر على اليوم الذي امتلك فيه الشيخ عبد العليم الشامي، شيخ قرية الحاجّ وزعيمها، سيّارته الأولى. كانت أوّل سيّارة يمتلكها الجبل الحبشي، حتى إنّها نسبت إلى الجبل بعد ذلك «سيّارة جبل حبشي». لقد كان حدثًا رهيبًا زعزع كلّ شيء في القرية. حتى إمام المسجد. فعندما وصف له منصور الأعرج ما تصنعه تلك السيّارة وهي تسير أو وهي تقف، أصابت الإمام قشعريرة صافية هبطت من كتفيه وسكنت في ركبتيه. ثم قام من مكانه يتطوّح وغادر المسجد ولم يعُد للصلاة فيه سوى بعد ثلاثة أيّام بسبب الحُمّى.

كان عبد العليم الشامي شيخًا وسيّدًا معًا، وكان جدّه قد وفد إلى الجبل الحبشي منتصف القرن التاسع عشر هاربًا من جبال صنعاء. كان

اسمُ جدّه مبارك الهمداني، في البدء، ثم أصبح مُبارك الشامي مع الأيّام. قال إنّه من نسل آخر الأنبياء، وكانت تلك الكلمة مؤثّرة على نحو لا يُصدَّق. حتى إنّ رجال القرية أصابتهم النشوة والشكيمة وصعدوا على نسائهم وصعدن عليهم لأسابيع، تيمُّنًا بحفيد آخر الأنبياء. لقد امتصَّت أرحام النساء في تلك الأيّام سيولاً من أصلاب الرجال أملاً في أطفال مباركين.

كانت شمس القرن التاسع عشر في القرية مختلفة، على وجه الخصوص في قرية الحاجّ، وكانت تنضج الحنطة في الجبل والأمشاج في الأرحام. اكتفى السيّد مبارك الشامي، الجدّ الرابع للشيخ عبد العليم الشامي، بما جناه اسمه من سلطة مفاجئة في القرية، وتناهى إلى سمعه ما أقدم عليه الرجال والنساء معًا، فشعر بالرضا العميق، وضربه وجع حادّ في عضوه، فقد كان وحيدًا وفارًّا، لم ير امرأة منذ أشهر. وبعد مرور زمن، اجتمع الرجال في ديوان كبير واتّفقوا على أن يجعلوا قريتهم قرية مباركة لا يمسسها سوء، وبيّتوا أمرًا. لكنّ السيّد مبارك الشامي، وبتواضع جمّ ولافت، قال لهم إنّه لا داعي لتغيير اسم القرية، وإنّه يفضّل الإبقاء على اسم الحاجّ إبراهيم، فكبُر الشامي في أعين أهل القرية حتى عنان السماء، وتزوّج امرأتين في الأشهر الستّة اللاحقة.

كانت سيّارة الشيخ عبد العليم الشامي من خانتين، يابانيّة الصنع من إنتاج العام ١٩٧١، وكان لونُها أبيض. اشتراها عبد العليم الشامي من أوّل معرض صغير للسيّارات في تعِز بمبلغ مالي كبير. يحصل الشامي على المال بيسر، فهو حفيد لآخر نبيّ للبشر. كان عليه أن يدفع مزيدًا من المال بالإضافة إلى ثمن السيّارة نظير أن يعمل أحد العاملين في المعرض على تعليمه القيادة لأيّام. قرية الحاجّ في أعلى

الجبل، وما من سبيل لبلوغها بتلك المركبة الجديدة. إلّا أنّ عبد العليم الشامي لم يعر ذلك الأمر اهتمامًا، واكتفى بالقول «سأقودها إلى حيث لا يمكن لها أن تسير بعد ذلك، ثم سنكمل الطريق على الأقدام». كان يقودها في الطريق الترابيّ الممتدّ من مدينة تعِز عبر قرى حذران ووادي الضباب حتى تخوم الجبل. يوقف السيّارة ويتسلّق الجبل. كانت المسافة من موقف السيّارة حتى قرية الحاجّ بين أربع إلى ستّ ساعات على الأقدام، وكان يترك سيّارته عند سفح الجبل ويصعد مع مرافقيه حتى قرية الحاجّ البعيدة. وكان يُبقي بداخلها على الدوام رجلاً يحرسها. راق الأمر لمنصور الأعرج بادئ الأمر، ثم وجد الأمر مملًّا بعض الشيء. فقد كان عليه أن يحرس سيّارة الشيخ عبد العليم الشامي لعشرة أيّام متواصلة، قبل أن يحلّ آخر محلّه. أمّا الشيخ، فكان يغادر القرية ثلاث مرّات في الشهر، وكان يدخل مدينة تعز بسيّارته البيضاء «كما دخل جدّي مكّة»، كان يقول. يتأمّلها بحنان، ويقبِّل مقودها ثم يمسح عليه برفق، يُدير مفتاحها، وما إن يسمع صوت المحرِّك حتى يبتسم كأنّه آخر أبله في جنوب الكوكب. يغادرها ثم يقف مشدوهًا وفاغرًا فاهه أمامها. يمسحها بعينيه وهي ترتجف، كان يقول إنّها ترتجف. يصمت قليلاً ثم يضغط بيده اليسرى على كفّ الرجل الذي إلى جواره، ويردِّد بذهول:

«تشبه ناقة الرسول، بيضاء ومباركة».

وافق منصور الأعرج على أن يكون أوّل شخص يحرس السيّارة. بعد انتهاء أوّل نوبة حراسة في الفجوة الجغرافيّة المهيبة التي تفصل جبل صبر عن جبل حبشي من ناحية الشمال، عاد منصور الأعرج إلى قرية الحاجّ واتّجه إلى منزل الشيخ عبد العليم. لنكن دقيقين: صعد منصور الأعرج إلى القرية. كان منزلاً يبعد عن المسجد مئات الأمتار

ويطلّ على مقبرة. وجد الشيخ في مجلِسه متّكأً في مقيل النهار المعتاد مع أكثر الناس وقارًا في القرية، وقد ملأ كلّ منهم فمه بأوراق القات الخضراء وانفصل عن الطبيعة الأمّ ودخل في ملكوته الشخصي.

«خزّن يا منصور، يا بطل، خزّن يا بطل وخبّرنا عن سيّارة الشيخ عبد العليم»، قال عبد العليم وكان يجلس في ركن مجلسه.

بحركات مهذّبة، رفض منصور فكرة مضغ القات ذلك النهار، فقد كان بحاجة إلى الراحة وقليل من النوم والخبز. قال إنّه كان ينام مبكّرًا ويصحو قبل الفجر. وقبل أن يذهب إلى النهر الموجود في أسفل الوادي، كان يضع مفتاح السيّارة في الفتحة الموجودة إلى يمين المقود ويديره يمينًا أو شمالاً إلى أن يسمع صوت المحرِّك. يضغط على زرّ الهُون مُصدرًا أصواتًا متقطّعة تغمر الوادي بالرهبة، حتى إنّه شخصيًّا كان يفقد القدرة على التنفّس للحظات. كانت عينا الشيخ تصهلان من البهجة، حتى إنّه لم يستطع إيقاف دموعه. وكان يتوسّل «أكمِل، أكمل» وكان منصور يكمِل، وكان الرجل الذي في ركن الديوان يبكي بصوت خفيض.

«تزأر، وتهدر بصوت وقور. يا له من صوت رهيب، ومخيف. مع الفجر يبدو كأنّه صوت يوم القيامة. ينحني كلّ شيء لصوت سيّارتك يا شيخ، كلّ شيء، حتى الجبل. يتجمّد كلّ شيء، حتى دمي والماء في النهر والصباح في الشّعاب»، قال منصور شاردًا، ثم دسّ عودًا من القات في فمه متجاهلاً شعوره بالتعب والنعاس، وشعر بالملل.

إنّ منصورَ رجلٌ لا يحبّ الكلام الكثير، ولا يلقي الخطب، ولا يعرف حتى كيف يصف العالم. وعندما يضطرّ للكلام يغمُرُه شعور

بالإنهاك والجزع، وسرعان ما يمِلّ.

ـ أكمل يا بطل، قال الشيخ، وكان صوته متقطّعًا وعميقًا، بينما كان يمسح دموعه.

ـ أكمل يا أعرج، قال صوتان أو ثلاثة.

لمس الشيخِ عرقًا نائمًا في أعماق منصور الأعرج، ولم يسبق أن امتدحه بتلك الطريقة من قبل. أمّا الآخرون، فكالعادة أرجعوا منصور إلى الحقيقة التي يهرُب منها، ذلك الأعرج المسخوط الذي ماتت أمّه وهو في الثامنة من عمرِه، وأبوه وهو في العاشرة، وبقي أعرجَ وجائعًا، وربّما كان ملعونًا وإلّا لما مات والداه في طفولته.

قالت حذران، قبل ثلاثة عقود من تلك اللحظة، إنّ الله لم يخلق عرجة منصور بل الشيطان، وإنّ ذلك ليس افتراءً عليه، فكلّهم يعرفون أنّ الكلاب لم تكن تنبح في منتصف الليل بتلك الصورة الرهيبة والموحشة إلّا عندما يجلس قاسم الحكيم بين فخذيّ غزلان ابنة أحمد الحرِق.

وكان عليه، عندما بلغ الثامنة عشرة من العمر، أن يتحسّس طريقه إلى مكان آخر لا يُهتدى فيه إلى عرجته، أو على الأقلّ لا ينظر إليها كما لو أنّها من صنيع الشيطان. كان يفرّ من عرجته وسرعان ما يجدها في انتظاره في كلّ مكان. وفي قرية الحاجّ، كانت عرجته هي المعلم الأكثر بروزًا في طبيعته.

استجمع منصور الأعرج قدرته من جديد، قدرته وشكيمته وخياله وغالبَ تعبه، وأيًّا تكُن رغبته، فليس من اللائق أن يخذل وليّ نعمته الجديد. تدفّقت الكلمات بغزارة من فم منصور كأنّها المرّة الأولى، أو كأنّها المرّة الأخيرة، ووقف بين البطل والأعرج.

«كنتُ ملكًا في تلك الوديان، ملكًا، وكانت السيّارة مملكتي. كانت واقفة لا تتحرَّك، مثل الجبال. لم أر وحشًا سوى مرّة واحدة. رأيتُ الطاهش، كان ذا سيقان ثلاث، وكانت الساق الرابعة قصيرة. كان أعرج. أعرج، مثلي، وكان سريعًا، مثلي. وكان نحيلاً، وغريبًا، وكانت الكلاب تنبح عندما تراه، ثم سرعان ما يتحوّل صوتها إلى عواء خفيف ثم أنين مكتوم. دار حول السيّارة عشر مرّات، ثم زأر. كنت أتأمّله من خلف زجاج السيّارة من الداخل، وكانت في يدي بندقيّتي. لم يكن لديّ في تلك الساعات من جار سواه. لم أصوِّب البندقيّة إليه، اكتفيت بالنظر وحسب. كان جائعًا، وكنتُ جائعًا. رمقني بعينين باردتين، مرّة أو مرّتين، ثم جثا أمام السيّارة ولم أستطع أن أراه بعد ذلك. أدرت مفتاح السيّارة ثم ضغطت على زرّ الصوت، فزأرت سيّارة السيّد عبد العليم الشامي ملء الوادي والجبل، ويبدو أنّ الوحش فرّ بعيدًا. لم أره بعد ذلك. بقيت وحدي».

ملأت النشوة قلوب الموجودين، واستحال المكان إلى ما يشبه السوق أو المزاد. حتى إنّ أحدهم، وكان متصوّفًا، وقف في منتصف الديوان وصرخ «حيّ، الله حيّ»، ثم عرّى نصفه الأعلى وضرب بجنبيّته الحادّة عشرات المرّات على كتفه اليمنى ثم اليسرى، وراح يمرّر طرفها الحادّ على بطنه العاري بقوّة وإصرار، ولم تخرج نقطة دم واحدة. ثم جعل يدور في وسط الغرفة، يدور كأنّه يبحث عن شيء، أو كأنّ شيئًا ما يبحث عنه. أمّا الرجل الذي كان يقف إلى يمين الشيخ، فقد أخذ جرعة كافية من الماء ثم بدأ ينتحب ويترنّح وشرع يغنّي للشيخ صفيّ الدين بن علوان «أحبابنا بجيرون، إنّي بكم لمفتون» بصوت دافئ وحزين وهم يردّدون خلفه، فأحسّ منصور ببرد يضرب أطراف قدمه العرجاء بقوّة، ونسي كلّ شيء.

١٠

قبل الساعة الرابعة عصرًا، ٢٤ يوليو ١٩٧٥، دخلتْ سيّارة الشيخ عبد العليم الشامي وادي الملك. تذكّر الحاجّ إسماعيل، رفيقه آنذاك، أغنية «طلع البدرُ علينا»، فجعل ينشدها مع رفاقه في السيّارة، وكان الشامي يمسك بالمقود سعيدًا ويحرّك رأسه. وكانت الريح الشملة تثير لعابه. ولوهلة، اعتقد أنّه المسيح وأنّ تلك الأرض هي أورشليم، أو أنّه النبي محمّد وأنّه سيلج أرضًا من النخيل يحدّها البحر والشمس، وليست لأحد.

«من هو البدر اليوم، يا إسماعيل؟» سأل مُرافقٌ يجلس في الخلف.

«السيّد»، قال إسماعيل، وهو يصلح عمامته.

«السيّارة»، قال السيّد، وهو يمسح لعابه.

طريق ترابيّ طويل يقود إلى النخيل. ونخيل كثيف يقود إلى البحر. وبحر بلا ضفاف، لم يملك عبد العليم الشامي سوى أن يقف

على شاطئه معتقدًا أنّ كلّ الذين عبروه لم يعثروا على شيء في الضفّة الأخرى، وأنّه لا توجد ضفّة أخرى في الأساس.

«لكلّ قدرة حدود»، قال وهو ينظر إلى سيّارته، ثم إلى الماء الأزرق الممدود. كأنّه كان يسأل سيّارته شاكًا ومؤمّلاً ما إذا كانت قادرة على أن تمشي أيضًا على الماء.

«أمّا لو ركبت سيّارتك على الماء، يا شيخ، فهي تستحقّ قيمتها وزيادة»، قال المُرافق الذي كان يجلس في الخلف، فحدّجه الشيخ بعينين واسعتين، ثم صرف بصره عنه.

كانوا قد ترجّلوا، ثم وقفوا مشدوهين أمام البحر لأوّل مرّة في حياتهم. سأل مُرافق، من الثلاثة ٱلذين كانوا في الخلف ولا نعرف منهم سوى اسم منصور، ما إذا كانت هناك بلاد خلف البحر، فصاح الحاجّ إسماعيل «الله». وردّد الشامي «الله». وشوهدتْ شفتا منصور تتحرّكان.

رمق عبد العليم الشامي رفيقه إسماعيل بعينين متسائلتين، فهزّ الأخير رأسه:

«نعم. الله وراء كلّ بحر، وفوق كلّ جبل».

كانت جملة مؤثّرة سمعها الشامي لأوّل مرّة في حياته، وامتلأتْ أذنا منصور بالإيمان وجعل يرفس طين البحر بقدمه العرجاء عشرات المرّات، كما لو كان يكتشف الله لأوّل مرّة.

أو ربّما كمحاولة من منصور الأعرج ليلفت انتباه ذلك الإلٰه الواقف على الضفّة الأخرى لبحر الأعراب. ولم يكن ذلك، في الواقع، سوى البحر الأحمر.

اقترب منهم محلّيُّون ذوو أجساد سمراء ويابسة. سألهم الشامي عن البحر، فلم يجدوا جوابًا. لكنَّ منصور اقترب منهم على طريقته، وكان قد شارف على عامه الأربعين، وسألهم عن شيخ البحر، فقالوا إنّ اسمه مُعين.

قال الشامي «هيّا يا رجال»، وأرادوا أن يسوقوا سيّارتهم بمحاذاة النخيل وبالقرب من البحر. «من السيّارة يبدو البحر أجمل»، قال إسماعيل وكانت تلك فكرته. ما إن صاروا جميعًا في السيّارة حتى قرَع الشامي بطّاريّتها. تحرّكت إطاراتها الخلفيّة في الرمل وغرقت حتى العجلة الحديديّة. طلب منهم النزول، لكنّ السيّارة لم تتحرّك شبرًا واحدًا إلى الأمام. جعلوا يشاهدونها بلا حيلة، فسمعوا صوتًا يقول إنّ ذلك يحدث دائمًا على الشطّ. التفتوا إلى الشيخ مُعين، وكان أسمر اللون نصفه الأعلى عارٍ، وبيده عصا ذات تشعُّبات على طرفها المحاذي لرأسه. قال إنّه يملك حلًّا، ثم فرك إصبعيه الإبهام والوسطى، فركض طفلان وغابا في النخيل.

مرّ الرجال عبر النخيل على الأقدام باحثين عن أفضل مكان ليخزِّنوا فيه القات معًا، شريطة أن تبقى سيّارة الشيخ الشامي في مدى البصَر. وجدوا المكان. فرش الرجال شيلانهم على الأرض جوار سيقان الأشجار، واتّكأوا على أحجار وقشّ وسعف. كانوا هناك جميعًا، وكان مُعين يتحدّث كثيرًا. قال إنّ قريته تلك، قرية نخيل وادي الملك، هي القرية الوحيدة التي صمدت أمام البحر منذ آلاف السنين. وأنّ البرتغاليين والإنجليز نزلوا فيها قبل زمن طويل، لكنّهم فرّوا بسبب الحمّى الرباعيّة. ذهب يشرح لهم طقوس الحُمّى الرباعيّة، وقال إنّ القرية احتفظت بأسرار علاجها. وأنّهم رفضوا كشف تلك الأسرار للبِيض الذين اجتاحوا الشاطئ قبل زمن.

قال لهم، وهو يتقمَّص شخصيّة رجل حكيم لم يمت منذ مئات السنين:

«عذَّبوا أجدادنا بالنار، وشنقوا بعضهم على النخيل. كانوا يمرضون وتصفرّ أعينهم ثم يموتون مثل الماعز. وما إن يحتضر رجل أبيض حتى يشنقوا منّا العشرات، لأنَّنا لم نكُن نفشي لهم سرّ علاج الحُمّى. كانت الحُمّى تحمي أرضنا، فلماذا نسلِّم السلاح لعدوِّنا؟ في الأخير، طردتهم الحمّى الرباعيّة من وادي المُلك، وربّما تبعتهم إلى أوطانهم، وتناسل أجدادُنا مرّة أخرى ومرّة أخرى ومرّة أخرى، وأنجبوا أُناسًا لا يموتون».. وجعل يضرب صدره بكفِّه ضربات خفيفة وكان مملوءًا بالهواء الصافي.

ثم وهو يشير بيده إلى الأطفال الجالسين حول منصور، دون أن ينظر إليهم، قال:

«انظر، لا يمكن لهؤلاء الأشرار أن يهزمهم أحد، لا الحمّى الرباعيّة، ولا البرتغاليّون، ولا ريح الحصاد».

هدأت روح الشيخ مُعين بعد لحظات.

كان يجلس القرفصاء بخلاف الآخرين، رافضًا تناول القات. كان عضوه الذكري ظاهرًا، ولم يكن يرتدي سوى معوز، يشبه التنّورة، يغطِّيه من خصره إلى ركبتيه. شعر الضيوف الجبليُّون بقليل من الخجل، لكنّ الرجل استمرّ في حديثه، وجعل يحكّ عضوه عندما يتوقَّف بين فكرة وأخرى.

يُعتقد أنّ تلك الأفعال مُعدية، لهذا السبب، ربّما، حكّ أكثر من شخص عضوه الذكري بالتوازي مع الشيخ مُعين، شيخ وادي المُلك.

أمّا عبد العليم الشامي، فقال للبحريّين، مُعين ومرافقيه ومجموعة

صغيرة من الأطفال ومرافق صامت، إنَّ قريته تقع على جبل وإنّهم لا يعرفون عن البرتغاليين شيئًا، وإنّها لم تخض أيّ حرب تستحقّ الذكر سوى مرّة واحدة عندما شوهد أحد كبار السنّ في قرية الحاجّ وهو ينكح بقرة تعود إلى قرية مجاورة. حدثت إصابات، وكان القتال ببنادق تشيكيّة وجرمانيّة، ولم يكن الكثيرون يملكونها. انتهت الاشتباكات بأن ألقيت البقرة من شاهق، ووضع القيد في قدميّ المُسنّ لستّة أشهُر، وحُبس في غرفة تتبع دار الشيخ. مُدِّد زمن العقوبة لعام كامل، عندما عثر الحُرّاس على المُسنّ وهو ينكح واحدة من أبقار الشيخ قبل أن تطلع نجمة الفجر من المشرق. دلّ قيده الحديديّ عليه، فقد كان يصدر أصواتًا مميّزة، ثم يئسَ منه الجميع. غير أنّ الشيخ، آنذاك، استدعاه، وقال له في لقاء حضره بعض عقلاء القرية إنَّ أمامه خيارين، إمّا أن يلقي بنفسه من شاهق، كما فُعل بالبقرة، أو يختفي في الوادي ويحرس القات من اللصوص وسيصله طعامه وشرابه.

«بعيدًا عن العيون يمكنك أن تفعل أيّ شيء، حتى أن تنكح نفسك، لكن لا تدخل الأرواح الخبيثة، ولا العار، إلى قريتنا بأفعالك».

قَبِل المُسنّ الخيار الثاني، واختفى في الوادي، إلى أن عُثر عليه جثّة هامدة بعد عامين.

أثارت قصّة المُسنّ والأبقار شجن منصور قاسم الأعرج، وكان يجلس بعيدًا عن المكان الذي يُمدّد فيه الشامي ساقيه. كان منصور يحمل بندقيّة طويلة الماسورة، حوله تجمّع أطفال ثلاثة، أحدهم كان نجلاً للشيخ مُعين وكان اسمُه جعفر، يلقّبه أصحابه بـ «الجعفة». ولم يفهم منصور المغزى من ذلك اللقب.

هبط منصور إلى طفولته، وقصّ على الثلاثة بصوت خفيض حكاية شيخ حذران عندما كان يستعرض قدراته الأمنيّة بمهرجان لمناكحة الثيران.

منذ وصول منصور إلى قرية الحاجّ، بعد ثورة ١٩٦٢، تحديدًا مع مطلع العام الذي تلا الثورة، وهو يكبُر وتكبر رغبته في أن يحكي. مع الأيّام، نسي أهمّ الأشياء في حياته معتقدًا أنّه لن يرويها لأحد ف «من يهتمّ؟». وعاش معتقدًا أنّه في زمنٍ ما وفي مكان ما سيحكي كثيرًا، حتى إنّه لن يتوقّف عن الحكي.

في وادي المُلك، استيقظت كلّ الرغبات الحيويّة في عروق منصور الأعرج، تذكّر النهر والشمس وعضوه الذكري الذي نسيه في الأسفل منذ سنين. كانت شمس البحر حارقة وملتهبة. وبلا أيّ قدر من الدبلوماسيّة، ذهبت تلك الشمس تحرق أكتاف الضيوف. وكانت الذاكرة تصعد في عروق منصور، حتى إنّه سمع جبالاً تسقط في صدره. وعندما لمح مُعين وهو يمسك بعضوه، رغم أنّه كان يجلس إلى الخلف منه، تذكّر كلمة سمعها قبل عشرات السنين: «حوريّة البحر». في تلك الأيّام، لم تخلق تلك الكلمة في خيال منصور شيئًا. لكنّه التفت الآن من على كتفه اليُمنى، فرأى البحر لا يزال نائمًا، وخطر في ضميره أنّه سينكح حوريّاته كلّها.

«انتظرني»، همس منصور بالبحر، وخُيّل له أنّ البحر يهزّ ذيله ويغمغم.

كان مُعين يتحدّث، وكان صوته أجشّ ومتين، حتى إنّ المرء ليشعر أنّه يطلع من بين أحجار غير مرصوصة، أو كما لو أنّ الرجل يتحدّث من خلال بوق قديم مصنوع من عظام الخيول.

عندما توقّف منصور عن الحكي لوهلة وراح يرمق الشيخ مُعين من الخلف، شدّه الطفل الجعفة من إزاره قائلاً «كمّل يا منصور». نقل منصور بصره إلى عينيِّ الطفل، فابتسم الأخير وقال: «لعلِمك، يحاول أبي الآن أن يكون صوته رقيقًا، أنت لا تعرف الحقيقة».

بحركة حاجبيه، سأل منصور عن الحقيقة! فقال طفلٌ إنّ الحمّى الرباعيّة ليست الحقيقة كلّها، وإنّما الأسرة التي انحدر منها مُعين، فقد وهبها البحر صوتًا عظيمًا يكفي لحرف السفن عن مسارها وإيقاف الرياح في تهامة.

لأوّل مرّة يسمع منصور هذه اللغة. جاء من الجبل، وكلّ شيء جديد أمامه. كلّ شيء، حتى البحر.. والجعفة.

في تلك الأثناء، كان حماران متوسّطا الحجم يحاولان إخراج سيّارة الشامي من رمل البحر، وكان رجلٌ شبه عارٍ يضربهما بقسوة؛ وأحد الحمارين يضرط، ويخرج بعرًا من إسته، ممّا عرقل العمليّة لبعض الوقت.

التفت مُعين لما يجري، ثم قال لضيوفه إنّ الأمر يبدو صعبًا هذا اليوم، فقد وضعوا زيتًا البارحة في مؤخِّرات حمير كلّ القرية. ذلك أنّ الريح ضربت النخيل بالأمس وجعلت الحمير تنهق، ولم يستطع أحد النوم. لذا فقد أمر الشيخ مُعين رجاله بتزييت مؤخِّرات حمير وادي المُلك حتى لا تستطيع أن تغلق مؤخِّراتها أثناء النهيق، ممّا سيجعلها تحتفظ بأقلّ قدر من الهواء في صدرها وسيصبح صوتها واهنًا.

لكن مُعين طمأن الضيوف:

«لا تقلقوا. لديّ حِصان لم أزيِّت مؤخِّرته أبدًا».

ثم ابتسم للقرويين الغرباء، والمذهولين.

١١

بين الأعوام ١٩٧٥ و١٩٧٨، عاش منصور في وادي المُلك. سلك بعد ذلك طريق السيل مرّة أخرى، أو طريق الجراد، ووجد الحرب.

سنعود لهذه القصّة فيما بعد.

إذ جنحت سفينة قادمة من البحر البعيد ودخلت تراب وادي المُلك، وكان مفترضًا أن تنزل في ميناء الحُديدة. وكان نجيب الأدرد يصرخ من على ظهر السفينة: «الرياح شديدة والسفينة في أضعف حالاتها ونحن لا نزال في المحيط، دعونا ننزل في عدن أو أبْين». فاقترب منه قائد السفينة، وكان بحّارًا هنديًّا، وأمسك بعنقه:

«اهدأ قليلاً، صراخك هو آخر ما نحتاجه في هذا الوقت. ماذا تظنّ عدن؟ عدن دولة أيُّها الأحمق. ستهاجمنا بحريّة عدن وسنغرق في لمح البصر».

وكانت تلك الكلمات قاسية على قلب نجيب الأدرد، ومقنعة.

وعندما قصّ ذلك الموقف على منصور الأعرج، شرد الأخير، وتذكّر القصّة لأيّام، وكان يسأل نفسه «تُرى أين هي عدن؟ وكيف يبلغ المرء الأعرج عدن»؟ وبالرّغم من أنّ منصور لم يفهم بالضبط ما معنى القوّات البحريّة وكيف ستغرق السفينة في لمح البصر، حتى إنّه لم يسألْ، إلّا أنّ عدن نالت احترامًا عميقًا في قلب منصور. وقال له نجيب «إنّها القرية المذكورة في القرآن، ألم تسمع عنها؟»، فأبعد منصور عينيه عن وجه رفيقه وذهب يتأمّل نخلة قريبة منه.

حدث ذلك في الخامس من يوليو ١٩٧٧، التاسع عشر من رجب، ١٣٩٧ هجريّة. كانت أوّل سفينة تدخل وادي المُلك بين العصر والمغرب، كما قالت زوجة الشيخ مُعين لابنها جعفر.

من تلك السفينة البالية، ذات الأشرعة الممزّقة والجدران الخشبيّة السوداء، نزل نجيب. كان في منتصف الثلاثينيّات من العُمر، أسمر اللون فقد سنّيه الأماميّتين الفوقيّتين على ظهر سفينةٍ قبل سنين، ولم يكن هنالك من أحد سوى البحر وبعض البشر سود البشرة.

صاح نجيب قائلاً إنّه لا يصدّق أنّه رأى الرمل أخيرًا. جثا على ركبتيه، وقبض على الرمل ثم فركه على صدره. كان منصور الأعرج وبعض سكّان الوادي يقفون على بعد خطوات منه، يتأمّلونه باندهاش وشيء من الذعر والريبة. وكانت الشمس تقع إلى الخلف من ظهره، وإلى الخلف من السفينة، وإلى الخلف من البحر.

قال إنّه قادمٌ من أفريقيا، فسأله الشيخ مُعين بلهجة حازمة «أفريقيا كبيرة، من أين جئت؟». بعد أن ألقى مُعين سؤاله الخطير، التفت إلى منصور وقال هامسًا وبثقة معلّم خبر العالم «لعلّه من البرتغاليين»، واستدرك:

«يوجد برتغاليُّون سود البشرة».

ثم ضرب بيده اليسرى على مؤخّرة رجل يقف إلى جواره:

«قيس. هذا من نسل البرتغاليين السود».

فضحكوا بصوت موحّد ورتيب، وأحسّ الغريب بشيء من الأنس.

كان رفاقه يراقبونه من على ظهر السفينة التي بقيت في الماء القريب.

قال لهم، وكان لا يزال يلهث:

«اسمي نجيب، أعمل في صيد الأسماك، وأفريقيا ليست كبيرة».

اقترب منه منصور الأعرج وصافحه. وقف الرجل في محاذاة منصور، وبدا أنّهما متطابقان في حجميْ جسديهما. ابتسم نجيب، فوقعت عينا منصور على أسنانه المفقودة، واكتشفت حدقتا الرجل عرجة منصور.

اتّجه منصور بضع خطوات ناحية السفينة، ونادى الرجال للنزول، فلوّحوا بأياديهم. قال نجيب «دعهم، لن ينزلوا». وضع نجيب كفّه اليمنى على جبهته كي يتسنّى له رؤية ملامحهم، لكنّ الشمس بدلاً من أن تدخل في عينيه فإنّها تسلّلت من فجوة أسنانه ودخلت فمه. شاهد سكّان الوادي تلك اللحظة، وكانوا قد اقتربوا من السفينة مع منصور. ولم تمض سوى ليلة واحدة حتى كان اسمُه نجيب الأدرد.

صار صديقًا لمنصور الأعرج، وسيعرفان الطريق إلى الحرب معًا. سيحارب منصور الأعرج مع الإسلاميين، وسيقاتل نجيب الأدرد إلى جوار الماركسيين.

في تلك الليلة، بقي رفاق نجيب الأدرد على ظهر السفينة. حصلوا على قليل من الماء والخبز، حرص منصور على أن يوصله إليهم بنفسه. قال أحدهم لمنصور بلغة عربيّة مكسّرة «واديكم جميل»، وقال له منصور «سفينتكم هي الأجمل»؛ فضرب رجل على خشب السفينة وصاح، فسمع منصور كلمة باهووووت وأحسّ بدوار عظيم وتوقّف عن الكلام، ووقفت كلّ شعرة سوداء في ساقيه.

ومع نجمة الصبح، لم يُعثر لهم على أثر.

بات الرجلان أوّل ليلة معًا. رافقهما الشيخ مُعين وقيس بعد أن صرف مُعين ابنه الجعفة. دخّنا التنباك وشربا القهوة في فناجين من الفُخّار. أراد الرجل أن يتحدّث عن أفريقيا، لكن مُعين حدّثه عن الوادي. قال له إنّه منذ تلك الليلة أحد رعاياه. سأل نجيب عن الهدير الذي يسمعه منذ حلّ الليل، فقال له منصور إنّ ذلك موسم الجراد الأحمر، وأنّ الجراد اقتحم الوادي منذ أسبوع، وأنّه لا يصل سوى مع الليل.

«قادم مثلك من أفريقيا»، قال مُعين.

فضحك نجيب على طريقة البحّارة، فتح فمه بوحشيّة وكان يضرب فخذيه بيديه. ولم يكن يضحك بتلك الطريقة إلّا إذا أحسّ بالخوف. بدماثة سكّان البحر، وهم يتكشّفون للغريب دفعة واحدة كما لو أنّه سليل البحر، قال الشيخ مُعين للضيف:

«لا تقلق، سنأكل معًا الجراد، ستطحنه بضروسك، لن تحتاج لأسنانك المفقودة».

في الظلام الخفيف، ضغط منصور على كفّ مُعين. ففهم مُعين أنّ منصور يُسدي له نصيحة أخلاقيّة، وكأنّه يقول له لا تشِر إلى عيوب

الرجل. والنصيحة أمر لم يكن يُدخل السرور على قلب مُعين. لكنّه تجاوز ارتباكه، وقال للغريب:

«لا تقلق، سينبت لك أسنان في الوادي من جديد، الوادي يصلح كلّ شيء، حتى عرجة منصور أصلحها. أمّا الجراد، فسيتّجه مع الفجر إلى الجبل. كلّهم يغادرون الوادي، إلّا جدّنا. يبقى معنا على مرّ الأيّام».

أخذ معين شفطة من فنجان القهوة مصدرًا صوتًا طويلاً، ثم قلب عينيه في المكان ورمى بصره في الفضاء، ثم عاد بعينيه إلى الغريب:

«إلّا البحر».

أحسّ نجيب بخدر في كتفيه، وكان يرتدي قميصًا أبيض مخطّطًا بالأزرق. فهو قادم من أفريقيا على البحر. هناك كانوا يطلقون على البحر طريق الشيطان. وفي بعض أراضي أفريقيا، وجدهم يصفونه بمخبأ الإله. وفي وادي المُلك، اكتشف نجيب الأدرد أنّ البحرَ شيءٌ آخر. فالبحر هُنا جدّ لأهل الوادي منذ القدَم.

انتصف الليل وغادر مُعين، وبقي الرجلان في ديمة الأعرج. هكذا كان اسم منزل منصور. وكانت غرفة وحيدة وصغيرة مبنيّة من الطين، ذات نافذة وحيدة ناحية البحر، يغطّيها منصور بقماشة بيضاء من الداخل من العصر حتى الغروب.

قصّ منصور لصديقه الجديد حياته باختصار. كان يقول كلمات مكثّفة على سبيل «عشتُ سنين مع الباهوت، وتعرَّفت على أرملة». سأله نجيب الأدرد «وكيف جئت إلى البحر»، فقصّ عليه أحداث تلك الليلة وكيف بقيت الحمير تسحب السيّارة حتى الليل، وكان الهواء يخرج من مؤخِّراتها بسبب الشحم فتنثني قوائمها الأماميّة وتسقط. ثم

استعانت الحمير بحصان، ولكنَّ رفاقه غابوا وتركوه.

في تلك الليلة البعيدة من العام ١٩٧٥، سمع منصور حكايات الشمس والبحر، فانسحب وغاب في النخيل. ترك لقدمه العرجاء السبيل، فأخذته بعيدًا حتى انتهى الوادي. كان البحر يضرب جانبه الأيسر، وكانت أذنه اليمنى تلتقط صرير الحشرات وبحّة الليل الذي نزل على الوادي على مهَل. عبر الوادي كالنائم. وعندما عاد إلى المكان الذي غرقت فيه السيّارة في الرمل، كان الشيخ الشامي ورفاقه قد تركوا المكان، ولم يكن هناك من أحد سوى حِمَارة وحيدة في الليل، تستجرّ شيئًا من جوفها، مغمضة العينين. وقف منصور إلى جوارها، وبدت له القرية كأنّها قبور. أحسّ منصور بالوحشة والخوف والجوع، لكنّ الحِمارة أخرجته من كلّ ذلك. أخذ عودًا من الأرض وقرّبه من فرجها فرفعت ذيلها، وكان بعض القشّ عالقًا بطرفه. تزايدت حركة فمها وبدا كأنّ جوفها امتلأ باللعاب. ابتلع الأعرج ريقه، واستعاد رباطة جأشه. كانت البندقيّة لا تزال على كتفه. تذكّر فجأة الطريقة التي يدخل بها القرى الجديدة. فعندما اقترب من يفرُس نكح حمارةً عند النهر، ثم ذهب إلى مسجد الباهوت. وعندما اقترب من قرية الحاجّ، في جبل الحبشي، بقي على حدودها ليلة كاملة إلى أن أخفاه الليل وهو يجلس القرفصاء على حجرة كبيرة، فسمع نخيرًا أو ما شابه ذلك. لم ينتهِ الليل حتى كان ينكح حمارةً كبيرة السنّ بالقرب من كريف القرية. وهي بركة تحفرها القرية لتجمع داخلها مياه الأمطار، وتقع بالقرب من المسجد، مسجد الحاجّ إبراهيم.

تذكّر كلّ ذلك، فابتسم لنفسه وبصق على كفّه ثم مسح عضوه ببصاقه. وضع البندقيّة على رقبة الحمارة كأنّها سلسال، وذهب يغرق في أعماقها. لم يكن قد انتهى بعد عندما نهق حمار في إحدى دُور

القرية، ففرّت الحمارة راكضة باتّجاه الدار. وبعد دقائق، كانت الحمارةُ تقف أمام بيت الشيخ مُعين والبندقيّة على عنقها. قال جعفر لوالده، وهو يمسك البندقيّة ويتعرّف عليها على ضوء القمر، «هذه بندقيّة الأعرج». فخرج الرجال بحثًا عنه. وعندما عثروا عليه بين النخيل، ولم يكن يحاول فعل شيء. كان فقط يهرب من كلّ شيء. أمسك الشيخ معين بعنقه، ثم صفعه على وجهه:

«تنكح حمارتي يا كلب»، ونهره. أنكر منصور فعلته، فقرَّب الشيخ مُعين فوهة البندقيّة من أنف منصور، وطلب منه أن يشتمّ الرائحة:

«شمّ يا كلب، هذه رائحة صلبك، أدخلت البندقيّة في إست حمَارتي أيُّها الحقير، وفي شهر رجب؟».

أمسك رجلان بيديه، وبقي في مكانه لا يقول شيئًا. جلس مُعين على الأرض، ومدّد رجليه كما لو كان يحاول التقاط الأنفاس بعد مسافة طويلة من الركض. ساد الهدوء الحذر، ثم نظر الرجل إلى عينيّ منصور، وابتسم بلؤم:

«عرفتُ من البداية أنّك كلب، فتركت لك الحمارة في الطريق لاصطيادك. لقد فعلت ذلك مع غيرك. أنت كلب، وهذا واضح. هنا في الوادي الكثير من الكلاب مثلك. لكنّك أيضًا أحمق، تضع بندقيّتك على عنق الحمارة ولم تنتبه للقمر. كنت أعتقد أنّ البرتغاليين هم آخر من ارتكب هذه الحماقة في الدنيا».

ولم يصدّق منصور ما سمعه، فالبندقيّة هي التي دلّت عليه وحسب.

ذهب مُعين يثرثر كثيرًا. قال إنّ الشيخ الشامي لم يبدُ مكترثًا

لغياب منصور، وما إن خرجت سيّارته من الرمل حتى استعاد طمأنينته، وكانت كلّ ما يحرص عليه. وعندما ركب سيّارته، شغّل محرّكها تاركًا لرفيقه إسماعيل مهمّة إبلاغ شيخ وادي المُلك بالموقف النهائي:

«إذا وجدتم الأعرج فهو لكم».

ولكن جعفر صحّح كلام والده، وقال:

«تحرّكت السيّارة بسرعة ثم توقّفت على بعد مسافة، ونزل منها أحد المرافقين واقترب منّا. قال لنا إذا جاء منصور أخبروه أنّنا سنعود إليه قريبًا، وسنصحبه في المرّة القادمة، وأبلغوه كلامًا من الشيخ عبد العليم: لا تفرّط ببندقيَّتك، ضعها في عينك».

استمع منصور الأعرج للحكاية التي سردها الطفل جعفر، ووجد رغبة عميقة في تصديقها. أمّا مُعين، فقد ركل ابنه في مؤخّرته، وراح الطفل يركُض وهو يحلُف.

قضى منصور سنوات طويلة في قرية الحاجّ بين العامين ١٩٦٢ و١٩٧٥، تعلَّم القراءة والكتابة على نحو أفضل، وأصبح راميًا ماهِرًا، وتعرّف في السرّ إلى نساء دافئات، لكنّه بقي نائيًا عنهنّ أغلب الوقت. عاش حارسًا في دار الشيخ الشامي، ولم يكن سوى الأعرج. ولأسباب يمكن فهمها، كان يتخلّف كلّ عام عن مهرجان الربيع، فكان الشيخ الشامي يصطحب حرّاسًا غيره. وكانوا يزورون ضريح الباهوت فيضعون هنالك قناني السمن البلدي والبخور، ويربطون الخيوط الملوّنة على الحديد المحيط بالضريح، ثم يؤوبون. ولم يكن منصور يسألهم قطّ عن حال الباهوت، ولا حال يفرُس. كان يفرّ من كلّ ماضيه. ولم يكن فراره سهلاً، ولا بطيئًا، كان يسقط كلّ شيء من ذاكرته.. ومع الأيّام أصبح غير قادر على تذكّر حذران، قريته.

عاش منصور في قرية الحاجّ سنين طويلة، لم يفكِّر فيها قطّ بزيارة يفرُس. وعاش في يفرس ما يقرُب من سبعة أعوام، لم يزر فيها مرّة واحدة قريته حذران. وها قد وصل إلى البحر، وأصبح رجلاً من وادِي المُلك. ومنذ اليوم التالي لمنصور الأعرج في وادي المُلك، بدا كأنّ ألف عام مضت منذ غادر قرية الحاجّ في جبلْ حبشي.

كانت عرجتُه تدفن ماضيه، وتحمله إلى ماض جديد.

استعاد بندقيّته بعد أيّام، وأصبح لديه غرفة صغيرة «ديمة» من الطِّين والقشّ وحمار ذكر. وكان مُعين يسامره طويلاً ويتبادلان الحكايات. كان منصور يروي فقط ذكرياته مع الباهوت ابن علوان. وعندما يحكي، كان يبدأ بالتذكّر، وكان الحكي يوقظ ذاكرته. وبقي مسكونًا بالفكرة التي تقول إنّه في مكان ما سيتحدّث كثيرًا ولن يصمت، ولن يملّ منه أحد.

بقي الباهوت الحصاة التي تؤلم ماضي منصور الأعرج وينتابه وجعُها. وعلى جانبيِّ الباهوت سقط الماضي كلّه.

وعندما وصل نجيب الأدرد إلى الوادي، بعد مقتل الرئيس الحمدي بأيّام قليلة، استعاد منصور الأعرج كلّ شيء تدريجيًّا. قال له الأدرد إنّه سيعود إلى قريته في وصاب السافل ليتزوّج نجيبة، ابنة عمّه. وقال له منصور إنّه ليس لديه ابنة عمّ، وإنّه يريد العودة إلى حذران في يوم من الأيّام. ثم جعل يهزّ رأسه ويقول إنّها ليست رغبته الحقيقيّة. كان الفجر قد اقترب وبدا قادمًا من جهة البحر، ولم يكن الرجلان قد عرفا بعضهما سوى منذ ساعات. لكنّ نجيب نهض من على حصيرته، وكان مستلقيًا للنوم، وهزّ جسد الأعرج المتهيّئ للنوم بقوّة، وقال له بنبرة يغلب عليها اليقين ـ كما لو كانت طالعة من حنجرة عمرها تسعون عامًا:

«لا بدّ وأنّ لك ابنة عمّ، صدّقني، من يدري! كلّ منّا لديه ابنة عمّ في مكان ما. تعلَّمتُ في البحر أنّ الله خلق الإنسان قبل مئات السنين، وخلَق له ابنة عمّ. هذه سُنَّة الله».

ابتسم منصور، وغلبته حشرجة في حنجرته، وتحوّل إلى جانبه الأيمن، وغفا قليلاً.

في نومه، لم ير ابنة عمّه. ومن غير المعقول أنّ تكون ابنة عمّه، فيما لو وجدت، قد عاشت قبل مئات السنين.

وفي الأيّام التالية، كان منصور ينام على جنبه تاركًا ظهره للجهة التي ينام فيها نجيب الأدرد، ولم ير ابنة عمّه قطّ.

ومن وقت لآخر، في الليل، كان يسمع نجيبًا يهذي في نومه. وفي مرّة سمعه يقول:

«لا يا نجيبة، أنا فدا لك يا نجيبة».

١٢

لا يعرف نجيب الأدرد العام الذي وُلد فيه. لكنّه قال لمنصور الأعرج إنّه كان قد بدأ القذف قبل إعدام أحمد الثلايا في تعز بحوالى ثلاثة أسابيع.

في ذلك المساء، وهما يتمشّيان أمام البحر والنخيل إلى يمينهم، توقّف منصور الأعرج فجأة، وشعر بغثيان ودوار. عاد رأس المقدّم أحمد الثلايا من الماضي، وتدحرج. وسال نهر حذران الصغير أمامه مرّة أخرى، وكان قد دفنه في ماضيه. جرى النهر أمامه حاملاً رأس الثلايا، وسمع كلاب حذران كلّها تعوي. ورأى طريقه الطويل منذ تلك اللحظة. ٢٢ عامًا مرّت على منصور الأعرج منذ اليوم الذي شهد فيه مقتل الثلايا في تعِز. ٢٢ عامًا هاربًا من قرية إلى أخرى، ومن جبل إلى الذي يليه. سقط رأس الثلايا إلى الأرض مفتتحًا شتات منصور الأعرج. عرف الأضرحة والريح والجراد والليل والوحوش وأسرار الحيوانات. صحب الحمِير والسكارى والموتى، وكانت الشمس أمّه، والسماء سبيله. تدفّق الماضي كلّه في صدر منصور،

فأحسّ باختناق. لا يمكنه أن يدفن كلّ شيء ويمضي، كما لو كان يقبر عظامًا.

في قرية يفرُس، أحبّ الباهوت، وتعلَّم سرًّا كبيرًا: كيف يواجه الوحشة والفناء والضياع والعدميّة بالأناشيد والسمَاع.

وفي قرية الحاجّ أحبّ الغمام. فقد أخفى عرجته وأسراره، وأتاح له فرصة أن لا يرى ماضيه. خزّن القات وذهب إلى أماكن السيل، وكان أوّل رجلٍ في قرية الحاجّ يرى السيل ويلقي فيه حجرين، ويخزّن بالقرب منه، ويراقبه حتى يجفّ.

لم يسمع برجل رأى السيل وهو يجفّ من قبل.

تعلّم الأذان. وكان الرجل الذي خرج في الظلام بلا فانوس، وصعد إلى سطح المسجد في الدلجة، في قرية الحاجّ، وأذّن. حدث ذلك عندما اختبأت القرية لأسبوعين كاملين في البيوت عملاً بنصيحة المؤذّن، الذي قال إنّه رأى طاهش الغمام، وأنّ الوضع لا يُسرّ. ثم لأسبوع مكتمل، كان منصور بطلاً، حتى إنّ إحدى بنات الشيخ استغلَّت خروج والدها إلى مزارع القات في الجبل، فنزلت إلى الدور الأرضي وطلبت من منصور أن يقصّ عليها صراعه مع طاهش الغمام. كان خدّاها مشرّبين بالحُمرة، كأنّ الشمس لم تمسّها منذ الأزل. وكانت خفيفة الوزن وحافية، تلبس تنّورة جبليّة مزركشة، وتضع على رأسها خمارًا، كما لو أنّها خرجت من خرافة قديمة. سرد لها منصور قصّة لم تحدث قطّ، ولمح ساقيها الرفيعتين وغمّازتين باهتتين على خدّيها، فآلمته لشهور عديدة. كانت سعيدة، وتبتسم، وتضع كفّها على خدِّها الأيمن، وأحيانًا تشهق بغنج وتضع كفًّها على فمها ثم تحرِّكها أمام وجهها، فتبدو كما لو كانت تزيح خيوط عنكبوت في مغارة. ثم

صعدت إلى خبائها، ولم يسمع لها منصور بعد ذلك حسًّا.

لقد غابت في الغمام، كما يحلو لمنصور أن يهجس لنفسه.

ترك منصور الأعرج رفيقه محتارًا أمام البحر والنخيل، وعاد إلى غرفته. بعد وقت قصير، لحق به الأدرد، وأمسك بيده طالبًا منه أن يجيب عن سؤاله:

«أين أخطأت في حقّك عندما قلتُ لك إنّي قذفتُ لأوّل مرّة قبل مقتل الثلايا؟».

لكنَّ منصور بقي صامتًا.

تعلَّم الصمت في حذران، مبكّرًا، ولا ندري سببًا لذلك. بمقدورنا القول إنّ الطريقة التي كان قاسم، والده، ينتهك بها كرامة زوجته غزلان، أدخلت منصور في طور ممتدّ من الشرود. لكن ذلك ليس كافيًا. غزلان، التي ماتت مبكّرًا، عاشت وحيدة مع طفلها الأعرج وقصّت عليه آلاف الحكايا. لا يتذكّر منصور قصّة واحدة مسلّية، أو متصالحة مع العالم. كانت مقهورة على نحو بالغ، وكان ابنُها شائهًا وعارًا ومسخوطًا. قيل لها إنّه ابن الشيطان، أو ابن الجانّ. فذهبت تحكي لابنها منصور قصص الجانّ والشياطين والوحوش والطاهش الأعرج والشيخ والسمّ، كما لو أنّها أرادت أن تعرّفه على أهله الحقيقيين منذ وقت مبكّر. احتضنت منصور طيلة النهار، وجلست أمام دارها راغبة في علاج ابنها بالشمس. وبدت على مرّ الأيّام غير مكترثة بما يجري في العالم، معتقدة أنّها وحيدة في فلاة، وأنّ الضياع والجوع والعذاب هو كلّ ما بقي على الأرض بعد عودة آدم إلى الجنّة. وأنّ الآدمي الذي سيضربها في الليل، كالعادة، والآخر الذي سيغمزها في الغد، تركهما آدم خلفه وصعد. فالجنّة لا تتّسع لشرورهم. روت

كلّ ذلك لمنصور عبر أكثر من صيغة، وداخل أكثر من حكاية. وكانت تستخلص العبر البائسة من قصصها وتصبّها في صدر منصور الصغير، منصور الأعرج.

قالت له إنّ آدم عاد إلى السماء بسفينة، وإنّ تلك السفينة كانت راسية على جبل. وفي مرّة، قالت له: كانت السفينة تجري في مكان ليس فيه جبال، حتى حدود السماء.

عاش منصور الأعرج قليل الكلام، يهرُب من ماضيه، ويبدّل أيّامه بحثًا عن أشياء لا يفهمها.

ربّما ظلّ منصور الأعرج يبحث عن سفينة تركها آدم بالقرب من جبل؟ ربّما. ومن يدري شيئًا؟ حتى منصور نفسه لا يدري.

استطاع نجيب الأدرد أن يوقد النار في ماضي الأعرج. أجلسه أمام البحر وفتح حقيبة أسراره. كانا بائسين معًا. فرفيقه الجديد غادر مدينة الحُديدة إلى أفريقيا في العام ١٩٥٥، بعد أسابيع من مقتل الثلايا. وإذا عدنا إلى ماضيه مطلع الأربعينيّات، فقد وُلد الأدرد في قرية الدكّة في وصاب العُليا، وكان اسمُه نجيب علي الوثني. سُمّي جدّه بالوثني، لأنّه كان على علم بالطقس وأسرار المطر والجدب، ويمكنه التنبّؤ بمواسم السيل ورياح الحصاد.

أخذه عمّه إلى الحديدة في سنّ العاشرة، ودرّبه على العمل في الميناء. وعندما بلغ الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، قرّر عمّه السفر إلى شرق أفريقيا، إلى جزيرة زنجبار، عملاً بنصيحة تاجر حضرمي التقاه في الميناء. قال له الحضرمي إنّ أفريقيا بكر. وبصرف النظر عن طبيعة أفريقيا، وما إذا كانت موجودة على وجه الأرض أم لا، فقد كانت كلمة «بكر» كافية لتقنع عاملاً في الميناء بركوب البحر.

بعد تسعة أعوام، قُتل عمّه في الجزيرة، وأفلت نجيب من المذبحة.

«كان يومًا فظيعًا، يا منصور، لا يمكن وصفه. ضربني برهبة وهزّ كلّ أيّامي. الثاني عشر من يناير ١٩٦٤، كيف لي أن أنسى ذلك اليوم؟ قتلوا من العرب عشرات الآلاف، وربّما أكثر. لا أدري. أبادوا العرب بطريقة عمياء. وعندما هرب من بقي منهم إلى الساحل، عثروا عليهم بعد يوم كامل وهم يقفون في انتظار المجهول. قتلوهم بالرصاص والسكاكين والحديد. كان غالبيّة العرب من العُمانيين. لم يحدث أن شربت ثياب العُمانيين البيضاء مثل ذلك القدر من الدم منذ القِدَم، كما أخبرني من بقي منهم.

كانت زنجبار بلادنا الجديدة، نحن اليمنيين والعُمانيين والهنود والإندونسيّين الأفارقة. العمانيُّون حكّام الجزيرة والجزر المجاورة، هكذا كانوا منذ مئات السنين. اشتغل عمّي لدى تاجر حضرمي، وعملتُ أنا مع تاجر عُماني في الميناء، وفي صيد الأسماك. الحقيقة، أنّنا كنّا كعرب أغنى من الأفارقة، وأكثر نشاطًا. لكنّ الأمور الكبيرة لم تحدث إلّا بعد جلاء الإنجليز. لم نكن نرى الإنجليز على الأرض، لكنّ الأمور كانت تمضي على ما يُرام لأنّ الإنجليز كانوا يراقبوننا، يراقبون الجميع، وكانوا يحرسون الجميع. شكّل العرب حزبًا وشكّل الأفارقة حزبًا، وخضنا الانتخابات. أنت لا تعرف ما هي الانتخابات؟ هاه؟».

شرح الأدرد لمنصور بكلمات قليلة ماذا تعني كلمة انتخابات، وتظاهر منصور بالفهم.

«قادت الانتخابات إلى المجهول، وصحونا على مسلّحين يقتحمون كلّ شيء في زنجبار. قيل إنّهم شيوعيُّون. حتى قصر السلطان

جمشيد عبد الله أصبح في قبضة المسلّحين الأفارقة، لكنّهم لم يعثروا عليه. فرّ. كان لديه مركب ضخم نجا به. كان عمّي ضمن الناس الذين ساقوهم إلى المقابر. كانوا يسوقونهم إلى مقابر العرب. كانت لنا، كعرب، مقابر كبيرة خاصّة في مناطق النخيل. زنجبار مثل وادي الملك، نخيل وبحار.

جمعوا العرب في أكوام حيّة، وألقوا عليهم كلمات وقصائد.. ثم أطلقوا النار عشوائيًا وتركوا جثثهم للشمس. في مناطق أخرى، حفروا أخاديد كبيرة وألقوهم فيها، ثم أطلقوا عليهم النار وأهالوا التراب. وفي بعض الأحيان، كانوا يجمعون العرب والهنود في بيوت كبيرة ويشعلون فيها النار، ثم يصطادون الفارّين بالرصاص. استمرَّت المذبحة يومين كاملين، نجا منها قليلون. نجوتُ من المذبحة، ولا تسألني كيف حدث ذلك. أنا لا أدري كيف حدث. كنت في الميناء، ورأيتُ الناس يفرّون، وسمعت الرصاص. اختبأت بين أخشاب وقاذورات دكّان أسماك. كان كوخًا، في الحقيقة. بقيت هُناك ثلاثة أيّام، رأيت فيها ميناء زنجبار الرئيسي كأنّه فلاة، لا أثر لأيّ حياة فيه. حتى الريح يا منصور، الريح لم تأتِ إلّا في اليوم الرابع. والموجة يا منصور، الموجة لم تضرب رمل الجزيرة إلّا بعد مضيٍّ أسبوع. ذهبت تضرب كلّ رمل الدنيا إلّا رمل زنجبار».

«بعد تلك المذبحة، شبع جيش المجرم كَرُومي من القتل، فاستطعت الخروج من الكوخ. كنت أتسلَّل في الليل، وآكل أيّ شيء في الميناء. في الليلة الثانية، رآني كلب مرقّط ونبح. خشيت أن يكشف مكاني. قفزت عليه وخنقته. لا أدري كيف فعلت ذلك. لكنّي خنقته ومات. وضعته على ركبتي للحظات، ثم تركت رأسه يسقط على الأرض.

في الليلة الثالثة، حزنتُ عليه.

شيئًا فشيئًا، عاد الهدوء بعد أن تخلّصت المدينة من الجثث. اختفى الذين كانوا يطلقون النار، وأصبح كرومي رئيسًا للبلاد. انتشرت شرطة كرومي في الجزيرة، وأصبح بطلاً بالنسبة للناس الذين لم يكونوا مهدّدين بالموت. بقي القليل من العرب، وبقيتُ في الميناء أعمل في بيع الأسماك، ثم امتهنتُ العمل في إصلاح السفن، ثم عملتُ بحّارًا وصيّادًا، وأدرت ظهري للمدينة. لم أدخلها بعد المذبحة إلّا في حالات نادرة. لا أدري ما الذي حدث بعد ذلك، فقد لبست ثياب البحّارة، تارة، وزيّ باعة الأسماك تارة أخرى، وقضيت أيّامي أمام البحر بحّارًا وبائعًا للأسماك. لكنّي عندما دخلت مدينة زنجبار بعد ذلك بحوالى خمسة أعوام، وتمشّيت في شوارعها مع صديق هندي، وجدتها وقد ملئت بالعرب مرّة أخرى. لستُ أدري من أين خرجوا. عن نفسي، فأنا أعرف أين كنتُ. لقد اختبأت في كوخ للأسماك. من الجنون القول إنّ كلّ أولئك العرب الذين رأيتهم بعد خمسة أعوام كانوا مختبئين في كوخ للأسماك. لا أدري من فعل بالعرب كلّ ذلك. قيل إنّهم الأفارقة. قيل إنّهم الشيوعيّون».

«عشتُ خائفًا من زنجبار، وأوْليتها ظهري. مع الأيّام، تعرّفت إلى امرأة عُمانيّة. كان اسمُها سلوى، وتسكن في وسط المدينة، بالقرب من قصر السلطان. وكنتُ أعمل في الساحل الشرقي للجزيرة. كانت ترتاد الساحل من وقت لآخر، وتشتري الأشياء الصغيرة التي يقذفها الموج والزبد، وكنت أراها.

كنتُ العربي الوحيد الذي بقي أمام المحيط الهندي، وكانت العربيّة الوحيدة التي تخرج من وسط الجزيرة وترى المحيط.

قلتُ لها أنا من اليمن، وقالت لي أنا عُمانيّة. قالت إنّها فقدت كلّ أهلها في المذبحة، وقلتُ لها إنّي لم أعد أرى أحدًا من الذين أعرفهم.

كان ذلك في اليوم الأوّل للقائنا.

في اليوم الثاني، سلّمت عليّ باللغة السواحليّة كما لو أنّها كانت خائفة من أحد، وكان قد مضى على المذبحة ثلاثة أعوام. مع الأيّام، صرنا نتحدّث السواحليّة، وعندما أحبّتني، قالت:

«المرأة لا تتذوّق الحبّ إلّا بلغتها».

فتركنا السواحليّة، ولم نعُد نخاف من أن يسمعنا أحد. في كلّ ذلك الوقت، رفضتُ الدخول إلى المدينة، وبقيتُ في الساحل. كانت المدينة ترهبني في النهار، وتبدو في الليل مجرّد مقبرة مفتوحة وجثثًا بيضاء. وفي مرّة، وما إن انتصف الليل حتى كُنت قد شربت جالونًا من الخمر. شربت خمرًا قال عنها الرجل الذي باعني إيّاها إنّها خمر إنجليزيّة. دخلت المدينة مخمورًا، وعبرتها حتى الضفّة الأخرى، وجلستُ عند حوش مقبرة ومددت ساقيَّ وبكيت. وكنتُ أبدو كسكّير إنجليزي. نهار اليوم الثاني، عدت إلى الساحل، وكنتُ مكروبًا وقلبي يعوي مثل كلاب السفن. قال لي جاري الأفريقي الذي يبيع الأسماك بالقرب منّي إنّها خمر روسيّة، وقهقه أمام الزبائن».

قام نجيب الأدرد من مكانه، وكانا جالسين على الرمل، ولم يكن ثمّة من قمر في تلك الليلة. بقي منصور فاقدًا للحركة والكلام، حتى عاد صديقه واستأنف قصّته من جديد:

«الذين دخلوا المدينة مساء ١١ يناير ١٩٦٤ قتلوا جميعًا صبيحة اليوم التالي، فبقيت في الساحل. بقيتُ وحدي، ثم جاء الناس،

وأدرت ظهري للمدينة.

لكن سلوى أقدمت على شيء عظيم لأجلي. هجرت منزلها في وسط المدينة، واشترت منزلاً بالقرب من الساحل الشرقي، على أطراف المدينة. وصار بمقدوري زيارتها والدخول إلى أطراف المدينة ليلاً.

مرّت الأيّام على الساحل وظهر العرب من جديد، وملأوا الأمكنة، وصعدوا على الأخشاب كما كانوا يفعلون. وعندما طلبت منّي سلوى الزواج، قلتُ لها إنّي أفضّل أن أكمل حياتي في كوخ الأسماك، فتزوّجتْ رجلاً فارسيًّا قال إنّ الريح جاءت به من الخليج.

في السنوات التي تلت المذبحة، لم يكن راديو الجزيرة يتحدَّث عن الإنجليز إلّا كأعداء. أصبح للجزيرة أصدقاء جدد كالاتّحاد السوفييتي وألمانيا. كنتُ أقول لنفسي: سأحارب الشيوعيّين فيما تبقّى من عُمري، سأنتقم لما حدث للناس في زنجبار ولدمّ عمّي. وعندما أتذكّر الفاجعة في ليل زنجبار الصافي، ترتعش كلّ شعرة في جسدي. وكأنَّ صوتًا يناديني من الضفّة الأخرى للمحيط:

يا نجيب، يا نجييييب، إنّما خُلقتَ لتبيع الأسماك، وتراقب المحيطات.

فأقاوم الماضي كلّه وأكتم حزني وغضبي، وأشغل نفسي بالتفكير في البضاعة التي سأجلبها في الغد».

كان منصور الأعرج ينصت بكلّ شعرة في جسده لمرويّات نجيب الأدرد. حتى بالنسبة لخيال منصور، وليس لخبرتِه وحسب، فما يرويه نجيب الأدرد كان جديدًا كلّيًّا.

كان يستمع كطفل ينظر إلى العالم من الأعلى، لأوّل مرّة. لكن،

من جهة أخرى، بدا معجبًا بتجربة الأدرد، ومسحورًا.

قال منصور إنّه يشعر كما لو أنّه نزل لأوّل مرّة إلى الأرض، وأنّ سفينة نوح جلبته من البحر المحيط، وقذفته على رمال وادي المُلك.
فضحك نجيب، وضرب بيديه على فخذيه. ملأت ضحكته ليل وادي الملك البطيء.

«والله العظيم» أكّدَ منصور.

فارتفعت ضحكة الأدرد، حتى خُيّل لمنصور أنّ الرجل سيوقظ كلاب زنجبار البعيدة كلّها.

«أنتَ أيضًا. عندما تحدّثني عن الباهوت والسيل والغمام، تنتابني رهبة، وأشعر أنّي هبطت إلى الأرض البارحة، وأنّ حوّاء هناك»، قال الأدرد، وهو يشير بعصا إلى النخيل.

لا يرويان قصصهما إلّا في طقوس خاصّة: يجلسان على رمل الشطّ، يشربان القهوة، وبيد كلٍّ منهما عصا صغيرة يحكّ بها الأرض.

جاءا من كوكبين مختلفين، وسيمضيان معًا ليخوضا حربًا في الجبل.

سيحارب الأدرد إلى جوار الماركسيِّين، وسيحارب الأعرج إلى جوار الإسلاميِّين.

١٣

قال جعفر للرجلين، نجيب ومنصور، إنّه بحث عنهما منذ ألف سنة وفي كلّ مكان. رمقه نجيب بلؤم، كأنّه يتأمّل مومياء، وقال له «نحن هُنا في الغرفة منذ ألف سنة إلّا خمسينَ عامًا» وذهب يصفع فخذه العاري ويضحك، ويقول «أين سمعتُ هذه الجملة من قبل؟».

قَبِلَ منصور الدعوة، وسارا خلف جعفر باتّجاه منزل الشيخ مُعين. في الطريق، نهره منصور بصوت خفيض «هي آية في القرآن». واستغرب نجيب «ظننتها سورة»؟ ولم يزد منصور شيئًا.

رأى نجيب منزل الشيخ في نهار العاشر من يوليو، بعد خمسة أيّام من وصوله. كان منزلاً عريضًا مبنيًّا من الطّين على طابقين، لا يفصله عن البحر منزل آخر. الجدران المواجهة للبحر كانت مطليّة بالأبيض. الجدران المواجهة للقرية والوادي بقيت دون طلاء.

«من الحديدة، اشتريتُ طحينًا أبيض يسمّونه نُوْرَه. خلطتُه بالماء وطليت جهة البحر فقط. اللون الأبيض يجلب الحظّ من البحر، لكنّه

لا يفعل شيئًا إذا كان مواجهًا للوادي أو البيوت».

حدّثهم مُعين بعد وصولهم.

مضى وقتٌ قصير، فدخل جعفر يحمل أواني من الفخّار والنحاس. «جرّبوا مرَقَ وادي المُلْك»، قال المضيف. التفت إلى جعفر وسأله «من ذبح الجدي؟» فقال خالي. في مدَرَة كبيرة من الخزف، غمس الرجال أصابعهم ورفعوها إلى أفواههم قاذفين بالخبز المبلّل بالمرق والحلبة إلى أعماقهم، وكانت تلك هي الفتّة التي لم يذقها نجيب منذ زمن. «أكلكم رائع» قال نجيب، فالتفت مُعين إلى الطفل، وسأله «من أوقد التنُّور؟»، فقال خالتي، وقام.

دخل شابّ بدين، بطنه ناتئ بعض الشيء، وألقى التحيّة، ثم وضع ساقيّ خروف مشويّتين أمام الضيوف. قدّم معين الرجل إلى الضيفين:

«هذا مؤنس، خال جعفر».

ودون أن يترك الضيفين ليحيّيا الرجل، راح يسأله وعيناه على إحدى الساقين: «تبدو مشويّة بصورة جيّدة، من شواها؟».

فقال البدين: عمّي.

فرغ الرجال من الغداء وجلسوا إلى أماكنهم ومتاكيهم. غادر مُعين، ثم عاد يحمل شيئًا في كيس من القماش. وضعه أمام الضيفين، وكانا متّكئين. جلس القرفصاء، وقال عازمًا:

«جلبتها من الحُديدة قبل أشهر. اسمُها حلاوة الحلقوم. تأتي من الشام، ولا أدري في أيّ جهة هي الشام»..

أدار نجيب رأسه إلى النافذة الطينيّة المحاذية لكتفه اليُمنى، فرأى

البحر. عاد ونظر إلى مُعين، ثم أشار بيده إلى النافذة خلفه:

«إذا كان البحر من هذه الجهة، فإنّ الشام تقع في الجهة الشماليّة منه، أي في ذلك الاتّجاه» وهو يشير بيده إلى الباب.

تجاهل مُعين ذلك الكلام، وانشغل بفتح الكيس وهو يغمغم: «لا أعتقد».

وضع منصور قطعة في فمه وهزّ رأسه. قال نجيب إنّه جرّبها قبل ذلك في أفريقيا. فسأله مُعين «في أفريقيا؟» وقال نعم. غادر الديوان، وعاد بعد دقائق مصطحبًا ابنه. وقف على الباب ناظرًا إلى نجيب.

«في أفريقيا التي تربِّي الخرفان والأبقار يبيعون حلاوة الحلقوم؟» تساءل الشيخ مُعين محتارًا وساخرًا.

فاكتفى نجيب بهزّ رأسه.

وبينما انشغل الطفل بلملمة كيس الحلوى، سمعه الرجال وهو يتمتم:

«حلاوة الحلقوم تخلّي الزبّ يقوم».

فركله خاله البدين، وكان مادًّا رجليه، في مؤخِّرته. لكنّ الوالد نهر الخال: «دعه».

غمغم مؤنس بكلام، فهم منه الضيفان أنّ مُعين هو من يعلِّم ابنه ذلك الكلام الفاحش.

في تلك الأثناء، وفد رجل آخر، كبير في السنِّ، بقي له سنّان في الفكّ الأعلى وسنّ واحدة في الفكّ الأسفل. ربّما بقيت له بعض الضروس، لكنَّ نجيب لم يستطع التأكُّد من ذلك. قال مُعين للضيوف إنّ المسنّ هو عمّ مؤنس، فقال الضيفان حيّاكم الله، وقال المُسنّ مرحِّبًا.

أخرج إبراهين الفتّة، وكان ذلك اسمُه الكامل، وكانوا ينطقونه بالنون بدلاً عن الميم، من كيس كاكيٍّ اللون نثارة أوراق يابسة، قال إنّها قات مجفّف. وزّع إبراهين على الحاضرين القات بقبضة يده، ووضعه في فناجين.

«جلبته من تهامة، وجفّفته لوقت الحاجة. نحن لا نزرع القات. البحر لا يقبل زراعة القات بالقرب منه، هذه إرادته. سامحونا»، قال إبراهين الفتّة.

ناوله جعفر آنيّة من النحاس بها ماء دافئ بعض الشيء، فملأ الفناجين حتى ثلثها الأسفل.

«انتظروا حتى تختمر» قال إبراهين الفتّة لضيوفه، وظلُّوا صامتين.

بعد أن أخذ الجميع مجالسهم، وبدا أنّ القات اليابس قد أنجز مفعوله، سافر الرجلان، نجيب ومُعين، بالموجودين في قصص وضلالات لا حدود لها. وعندما دخل الليل من النوافذ الترابيّة ونهضت رائحة البحر، قال مُعين إنّ الجراد الأحمر سيهبّ الليلة.. فقال إبراهين:

«الرياح هادئة الليلة. وقد يضلّ الجراد طريقه».

لكنّه، أعني إبراهين، اقترح بدلاً عن انتظار الجراد أن ينشد منصور الأعرج من قصائد الباهوت ابن علوان. وافق منصور، وأبدى نجيب حماسًا مفتعلاً قائلاً إنّ أفريقيا ينقصها الباهوت، وستكون أعظم البلاد!

أخذ منصور نَفَسًا وتنحنح محاولاً تنقية حنجرته، بينما كان مُعين ينهر نجيب بصوت مبحوح وأجشّ:

«أفريقيا التي تربّي الخرفان والأبقار أجمل البلاد؟».

بعد بيتين من الشعر، صاح مُعين:

«انشد من السمَاع الذي نحفظه، أحبابنا في جيرون».

فذهب يترنّم ويترنّح، وراحوا ينتشون ويردّدون معًا «إنّي بكم لمفتون». وكانت أغنيتهم تلك، في ذلك المساء من يوليو من العام ١٩٧٧، هي الصوت الوحيد الذي سمعه بحر القلزم على طول حدوده مع اليمن.

بعد السمَاع الثاني، هتف البدين «الجراد وصل».

وقال إبراهين:

«كمّل يا منصور، قهوة يا جعفر».

ودخلوا في الأغنية الثالثة وكانت هي الأجمل.

عادوا إلى أحاديثهم مرّة أخرى. قال المُسنّ:

«ميناء الحُديدة مليء بالسفن. أيّام الرئيس الحمدي مباركة».

قال نجيب، موافقًا، إنّ السمعة المشرقة لأيّام الحمدي وصلت أفريقيا، وإنّها دفعته لركوب البحر والعودة.

كعادة شيخ وادي الملك مُعين، فقد أخذهم بعيدًا. قال إنّ الحمدي جاء إلى الحكم «بعد أن طليتُ بيتي بالنورة». وأنّه كان متوقّعًا أن تجلب النورة حظًّا كبيرًا. قال إنّه لم يكن يتوقّع أن تجلب النورة حظًّا عظيمًا كالحمدي، لكنّ ذلك حدث على أيّة حال، وأنّ الشعب اليمني سيشكره في قادم الأزمان.

حدثّهم إبراهين الفتّة عن الحمدي الذي رآه في الميناء قبل ثلاثة أشهر:

«نحن أبناء السواحل والوديان لا نحلق شواربنا، لكنّنا لم ننتبه قطّ إلى أنّ الحمدي بلا شارب. كنتُ في الميناء أشتري مقاضي، وأزور رجلاً من وادينا يعمل هناك منذ سنين. قالوا إنّ إبراهين جاء لزيارة الميناء، وهرعوا في اتّجاهه. سألت صاحبنا «هل تقصد الرئيس؟» فقال: «إبراهين». وهرع معهم. هرعتُ أنا الآخر ورأيته. كان يبتسم وكنّا نبتسم. وللحظات، سكنت كلّ الأصوات في الميناء، وهمد الضجيج. تحت شمس ذلك اليوم وفي تلك اللحظات، لم أسمع ولم أرَ سوى أناس مبتسمين لرئيس يلوِّح بيده ويبتسم. سرعان ما عاد الهتاف أهلاً بالحمدي يملأ الأرجاء».

كان ذلك في الأوّل من مايو ١٩٧٧، وقد كان إبراهين الفتّة بالفعل محقًّا.

كانت صنعاء في تلك الأيّام هادئة، وكانت مستقرّة سياسيًّا. الرئيس الحمدي كان قد مضى على وصوله إلى السلطة أكثر من عامين. كان ذلك العام، ١٩٧٧، حافلاً على المستوى السياسي العام في البلد. قرّر الحمدي، الذي لم يكن قد تجاوز الأربعين من عمره، أن يُخرج بلاده من ألف عام من العزلة. وبالنسبة ليمنيين كثيرين، فقد كان ذلك الرجل هو رياح الحصاد. وخلال أشهر ذلك العام، استقبل الحمدي في صنعاء العديد من الرؤساء والضيوف الدوليين. وفي الحادي عشر من أكتوبر، من العام نفسه، قُتل الحمدي في صنعاء، وكفّت رياح الحصاد عن المجيء.

١٤

أدار نجيب الفكرة في رأسه مئات المرّات، ولم يصل لقرار. يريد الجبل، ومن الجبل يريد نجيبة. لكنّه، وبشكل دائم، يريد البحر فقط.

عندما كان في الرابعة من العمر، وُلِدت نجيبة.

«منحوها الاسم لأنّها ستكون لي. وعندما بلغت السادسة من العمر تركتُ قرية الدكّة، ولا أدري كم كان عمري عندما تركت الحُديدة. في الحقيقة، كنتُ قد بدأت القذف، وكان يصِل من هنا إلى هناك»، قال وهو يشير بيده. «ثم دخلتُ أفريقيا من جهة الشمس».

قدحت الكلمة ماضي الأعرج. لقد جاء من جهة الشمس ومشى خلفها، هو الآخر، ووجد أفريقيا الخاصّة به. وجد الباهوت.

«عشتُ في زنجبار، وتركتُ نجيبة تكبُر في وصاب دون إزعاج منّي. تعرف إزعاج الرجل يا منصور. ساق راديو زنجبار خبر مقتل الإمام أحمد وسقوط ملكه، وخمّنتُ عُمْر نجيبة وأنا واقف تحت شمس الظهيرة، فقال عمّي إنّها قد تجاوزت السادسة عشرة. إذا مشيتُ

وراء حساب عمّي، فهو أيضًا عمّها، فقد كانت بالغة عندما حدثت مجزرة زنجبار. خشيتُ على نجيبة من انتقام الأئمّة. قال عمّي إنّهم يعتقدون أنّ اليمن ملكهم، وإنّهم سيقاتلون حتى يموتوا جميعًا أو ينتصروا. وكنتُ أتأمّل النجوم في الليل، وأفكّر: إذا انتصروا، فذلك سيعني أنّهم قتلوا نجيبة. كان راديو زنجبار يقول إنّ هنالك حروبًا في اليمن، ولا يقول ذلك إلّا نادرًا. وكنتُ أرتجف وأتساءل: ما دخل نجيبة بكلّ ذلك. وعندما سمعتُ مرّة مذيعًا يقول باللغة السواحليّة إنّ الأئمّة يندحرون، صرخت «أفدي دينك يا نجيبة».. ولكنّ المذيع عاد وغمغم، وقال إنَّ الجيش المصري هو الذي كان يدحرهم».

«رجوتُ سلوى العُمانيّة، عندما زرتُ بيتها لأوّل مرّة على طرف المدينة، أن أسمِّيها نجيبة. في البدء تشكَّكتْ، وانفعلتْ. لكنّها قبلت الأمر بعد ذلك. أخبرتُها أنّ نجيبة ملكة يمنيّة قديمة، وأنّها قُتلتْ في البحر وهي تدافع عن موانئ عُمان وحضرموت. قالت إنّها لم تسمع بذلك الاسم من قبل. وقلتُ لها إنَّ المرأة لا تسمع الكثير عندما تكون في أفريقيا. هزّت رأسها وقالت: صحيح، ولكن لماذا كانت تدافع عن سهول عُمان؟ قلتُ لها: بل عن سواحل عُمان.

ثم أصبحت تقول لي: أنت الملك نجيب، أنا الملكة نجيبة. وكانت تكبرني بعشرة أعوام على الأقلّ.

لم أضاجعها أوّل مرّة، إلّا بعد أن أعدت حساب عُمر ابنة عمّي نجيبة، لئلّا تكون لا تزال دون سنّ البلوغ. تعرِف يا منصور، من العيب على الرجل أن يركَب ابنة عمّه قبل سنّ البلوغ! كان ذلك في رمضان، بعد المجزرة بثلاثة أعوام. في تلك الليلة، اعتليت سماء زنجبار وصرخت: نجيييييبة. أمّا سلوى، فكتمت أنفاسها لدقائق، ثم شهقت حتى رأيت المحيط يغرق في حلقها. رأيت قوافل التجّار

تحترق في أنفاسها. بينما كانت تشهق مغمضة العينين، رأيتها تحارب على مقربة من شواطئ عُمان وتُصاب بسهم في كتفها، وتنزف. ظللت أصرخ وأنا أغرق فيها، وأضع يدي على كتفها لأوقف الدم، وتتطاير دموعي. عندما أوصلتُها إلى الحدود، أحسست أنّي أنقذتها من الموت، وألقيت بجسدي إلى جوارها.

استعدتُ في تلك الليلة مُلك العُمانيين على جزر المُحيط. وفي اليوم التالي، قالت لي سلوى: هكذا أحسستُ أنا أيضًا».

«كنتُ جائعًا لها. وكانت تسألني ما إذا كان كلّ اليمنيين جياعًا مثلي. أخبرتُها أنّي أعرف شيئًا واحدًا وحسب، وهو أنّي جائع، وأنَّ أولادي سيكونون جياعًا مثلي، ولا أعرف الكثير عن سائر اليمنيين».

مضت أشهر على وصول نجيب إلى وادي المُلك. ضربت الريح سفينتهم في عرض البحر وأوشكوا على الغرق. وفي الليل، سمعوا هديرًا يخترق سماء البحر* المكشوفة، فقال قائد السفينة إنّه موسم الجراد. كانت السفينة في طريقها إلى الحُديدة، وعلى ظهرها أفارقة وهنود وعرب لا يعرف بعضهم بعضًا. وعندما رأى النخيل من بعيد، طلب من قائد السفينة أن يلقيه في البرّ. «ولكنّها ليست الحُديدة»، صاح به القائد. لكنَّ نجيب عاود توسّله «أرجوك، القِني هُناك وأكمل رحلتك».

كان نجيب قد عمل أيضًا بحّارًا، لكنّه كان يتّجه جنوبًا في الشرق الأفريقي، وقلَّما صعد المحيط باتّجاه اليابسة العربيّة. كان يجلب البضائع إلى زنجبار مع البحّارة العُمانيين والهنود. وعندما رسم له بحّار هندي، قال إنّ اسمه تُواري، خارطة المُحيط الممتدّ من شرق أفريقيا حتى جنوب الهِند، ارتعدت سيقان نجيب، وتوقّف قلبه عن

الحركة لعدّة أيّام. بالطبع، لا يمكن أن يكون ذلك صحيحًا، لكنَّ نجيب بدا متأكِّدًا من أنّه لم يسمع ضربات قلبه لأيّام عقب رؤيته لحجم المُحيط.

«في أعالي المُحيط، قد تتوقَّف الرياح. إذا توقَّفت الرياح سيتوقَّف المركب. المركب في المحيط، قال وهو يضرب على صدره، هو قلبُك. ولا يخفق القلب سوى في الرياح. ولا تزهر الأشجار إلّا في الرياح. الرياح تلقّح كلّ شيء، كلّ شيء، حتى نساء الجنّ. وإذا سكنت الرياح في البحر ترتعد فرائصي كلّها».

كان يتحدّث كحكيم عرف البحر جيّدًا، أو كأنَّ البحر صديق طفولته. وأمام حكايات الأدرد، لم يكن منصور الأعرج سوى تائه، وغريب، ومنفعل.

وبعد مقتل الحمدي في صنعاء، قرّر نجيب العودة إلى قرية الدكّة. وبقي يوم عودته يتردّد في رأسه ولم يستقرّ.

في ذلك المساء، جاء إبراهين الفتّة راكضًا وملتاعًا ووقف أمام الناس. كانوا مجتمعين في عريش من القشِّ والسعف مخصّص للسمَر، يفصله عن البحر مئات الأمتار. صاح إبراهين الفتة:

«قتلوا إبراهين في صنعاء».

عَلا الصياح وبكى بعضهم، ودخلت الغمّة فجأة إلى الوادي، وفاض الكرب.

في تلك الأيّام، لم يكن المرء يسأل عن القاتل في صنعاء، فهناك دائمًا قتلة. كانت هويّة المقتول هي التي تحدِّد نوع الحُزن وحجم الخيبة والفزع.

«قلتُ لكم إنّه لن يعيش طويلاً وإنّهم سيقتلونه»، كان مُعين يصيح، ولا يبدو أنّ أحدًا سمعه.

أمّا ابنه جعفر، فذهب يرفس الرمل بقدمه وهو يقول «قتلوه عيال إيري». وعندما سأله طفل يقاربه في السنِّ عن المقتول، أجابه: «إبراهين».

ركض الطفل في الظلام ودخل القرية وهو يصيح «أمّاااااه قتلوا إبراهين»، فشقَّت أمّه ليل البحر والوادي «قتلوا إبراهيين». وخرج من الخيمة رجل أسمر شديد السمرة، وكان اسمه قيس، ومضى حتى وقف أمام البحر. وكانت الموجة تضرب حتى قدميه وهو يبكي مثل جمل عجوز، ويلهج «حتى إبراهين قتلوه».. ولا ندري متى عاد ذلك الرجل إلى بيته تلك الليلة.

لو دخلتَ وادي المُلك في ذلك الليل لتمنَّيتَ أن تكون مقتولاً في صنعاء، ويكون اسمُك إبراهين.

١٥

عندما استيقظ نجيب الأدرد من نومه فجر اليوم التالي، غادر غرفته وذهب إلى البحر. جثا على ركبتيه ووضع كفيّه على الفخذين. لامست موجات صغيرة مزبدة ركبتيه وساقيه وتجاوزت قدميه، فتذكّر أفريقيا.

«لو أنّي أكملتُ حياتي بائعًا للأسماك، أو بحّارًا بالقرب من زنجبار».

لم يرَ في الأرجاء من جبل، لكنَّ فكرة الجبل بدت له في تلك الأثناء مهيبة. فقد أدار ظهره للجبل للمرّة الأخيرة قبل أكثر من ثلاثين عامًا. هو لا يعرف الآن كم بلغ من العمر، لكنّه يتذكَّر أنّه قذف أوّل مرّة كرجل قبل مقتل المقدَّم أحمد الثلايا بأسابيع.

وبأصابعه يعدّ عُمره.

سمع من عمّه وهما يستقبلان زنجبار لأوّل مرّة:

«سنعيش هُنا إلى الأبد. هُنا لن تصلنا الأخبار السيِّئة التي تجيء

من الجبل». وهو يتناول القُرْعَة من عمّه، ولم تكن سوى كيس كبير من القماش مملوء بالحاجات، قال عمُّه بصوت متقطِّع:

«كلّ داء من الجبل، وكلّ ألم».

عدّل ظهره تحت شمس زنجبار المبهجة، ومرَّر عينيه الجافّتين على الجزء البادي من الجزيرة. «هذه هي» جعل يتمتم، ثم قفز إلى الماء برشاقة. وهو يعدّل وضع الكيس على الكتف اليُسرى لنجيب، همس به:

«سيعلِّمك البحرُ مبكّرًا كيف تصير رجلاً، بخلاف الجبل. لا يحتاج الجبل للرجال، بل لأناس عاديين يحرثون وينامون. يريد الجبل أناسًا أشقياء لا يحزنون عندما يموتون». وبقيت كلمات العمّ عالقةً في ذلك الرأس الصغير.

في مرّة، قال نجيب لمنصور الأعرج إنّه قذف منذ مقتل الثلايا حوالى ستَّة آلاف مرّة. ثم راح يقسمها على عدد ٢٠٠ مستخلصًا أنّه مضى عليه حوالى ثلاثين عامًا. أحسّ منصور بالقرف، وقال لرفيقه «لا تحسب الأعمار بهذه الطريقة القذرة، الأعمار من الله». فقهقه الآخر وطوَّق كتفي منصور، وهو يقول:

«كنتُ أمازحك، أنت لا تفهم المزاح».

ها هو الجبل، رغم شحَّة الأخبار، يقذف بحر وادي المُلك بالأخبار الموحشة. من سيجرؤ على صعوده؟ وماذا عن نجيبة؟

كان غارقًا في تأمُّلاته وأحلامه، بينما تجري إصبعه على الرمل المبلول وتكتب اسم محبوبته، ربّما دون أن ينتبه. وكان يكتب اسمها بلا نقاط.

وفي منتصف ظهيرة ذلك اليوم، التقى بالأعرج خلف الغرفة، يسمِّيانها «الدار»، ويسمِّيها أهل وادي المُلك «ديمة الأعرج». التقاه خلف الدار، ولم يتبادلا الكثير من الكلمات. أشعلا موقدًا صغيرًا ووضعا عليه طبقًا من المدَر وصبّا فيه الحليب. كانا صامتين، يتشاغل كلّ منهما بتفتيت رغيفين من خبز الوادي، يحصلان عليه في العادة من دار الشيخ مُعين. شرب الحليب الساخن، وأخرج منصور من جيب قميصه الأزرق الحبّة السوداء ورشّها ببطء على وجه الطبق. اختفى الأدرد لوقت قصير، ثم عاد بقبضة من السمن البلدي السائح، وكان سمن أغنام، على طرف قطعة خشبيّة قصيرة وعريضة من أحد أطرافها، تشبه ملعقة خشبيّة. صنع نجيب حفرة في وسط المدرَة بطرف عود استلّه من الموقد. ألقى منصور بالسمن في الحفرة، فاختلطت بالحليب محدثة صوتًا دافئًا، ضئيلاً، يشبه صوت عين كبريتيّة.

سأله منصور، وهو يتأمّل اللقمة التي التقطها بأصابعه الثلاث:

«تفكّر حقًّا بالسفر إلى قرية الدكّة؟»

«السفر؟ هذا ليس سفرًا يا منصور. ليس سفرًا، بل عودة. المرء لا يسافر إلى قريته».

«أنا لا أفكّر بالعودة، مثلك. هذا الأمر يفجعني».

«بالنسبة لك فهو سفر. القرية التي لم يعد لك فيها أحد يحبّك قرية غريبة. ذهابك إليها سفر. تعرف، تعلّمتُ في البحر أنّ كلّ قرية غريبة هي أفريقيا. ولا بدّ أن يتركها المرء يومًا ما».

«على الأقلّ، فيها قبر أمّي. كيف تكون قرية غريبة وفيها قبر أمّي؟».

«أمّك لم تعد في حذران يا منصور. اصحَ. أمّك في السماء،

أخذتها أمّ الباهوت وسافرت بها. ألم تقل إنّ ضريح أمّ الباهوت يقع بالقرب من قريتك؟ أتعتقد أنّ أمّ الباهوت ستتخلّى عن أمّ الشابّ الذي خدم ابنها؟».

الطريقة التي يتحدَّث بها نجيب الأدرد تبدو غريبة بالنسبة لمنصور، الذي لا يتحدّث كثيرًا.

«أين تعلَّمت كلّ هذا؟».

وبدا نجيب الأدرد أمام منصور الأعرج باهوتًا جديدًا، فأحبّه منصور من أعماقه، وأحبّ أسراره ورؤيته للعالم، ولكنّه بقي خائفًا. ولم يكن يعلم ما إذا كان خائفًا منه أم من الطريقة التي يكشف بها الأدرد الأشياء.

ابتلع الأدرد لقمة كبيرة، ويبدو أنّها كانت ساخنة. كاد يختنق. سعل وقفزت الدموع من عينيه، وكان يشير إلى منصور بيده، ثم أخرج لسانه وسال اللعاب من طرفها. قام منصور وسدحه على ظهره أربع مرّات متتالية، فتوقّف عن السّعال. أخذ لقمة أخرى، ثم نظر إلى منصور:

«ماذا تقصد بكلّ هذا؟»، ثم ازدرد ريقه.

«أقصد الكلام»، أجاب منصور وهو يعود إلى مكانه.

«أنت أيضًا تتكلَّم. القصّة التي رويتها عن أوّل ليلة بتّ فيها في ضريح الباهوت لا تزال عالقة بين عينيَّ. أنت تقول كلامًا وتسلب أفكاري. انظر كيف كان أهل الوادي مشدوهين وأنت تحكي. هل رأيت فم إبراهين الفتّة؟ لم يغلقه تلك الليلة حتى الصباح. ذلك الرجل يلتقط كلّ كلماتك عن الباهوت ويشربها كأنّه بئر، حتى إنّه يصيبني أحيانًا بالتوتُّر من الطريقة التي ينصت بها إليك».

«لا أقصد ذلك. كلّ أهل الوادي يقولون إنّه لا أحد يجاريك في كلماتك. وإنّك تقول أشياء لا تخطر على بال أحد».

«من البحر، نرى الدنيا بشكل مختلف، يا منصور. حتى الكلمات تختلف. كلّ شيء مختلف هُناك. حتى السماء، السماء تكون قريبة كأنّها جبل على بعد مسيرة ليلة. مثلاً يا منصور: عندما رأيتك أوّل مرّة على الساحل، وأنا أقفز من على السفينة، كنتَ بالنسبة لي، أنت والآخرون، النجاة. وكنتُ بالنسبة لكم الضياع. كلّ شيء يختلف لدينا نحن الذين نمشي في البحر. لا نرى النار، ولا النخيل. يتبقّى لنا فقط الكلمات. ومع الأيّام، تختلف كلماتنا عن كلمات الناس الذين يضعون أقدامهم على الرمل. من يضع قدميه على الأرض يحسّ بالكلمات على نحو يختلف عن الذي يضعهما على أخشاب فوق البحر».

قام منصور من مكانه ومسح يديه ببعضهما، ثم دخل غرفته. سمع نجيب يكلّمه: سأصحبك معي إلى قرية الدكّة، سأعيدك إلى الجبل.

وضحك بصوت عالٍ، وتجاهله منصور. لم تكن تلك الفكرة حتى لتخطر له على بال. فهو، منصور، في وادي المُلك، ويعلم أنّه سيمضي قريبًا أو بعد زمن إلى مكان ما، وسيرى سفينة آدم بالقرب من جبل. لكنّه لم يعُد يفكّر مرّة أخرى بالصعود إلى الجبل، أيّ جبل.

في ذلك المساء، بحث إبراهين الفتّة عن نجيب الأدرد، في الواقع، حدث ذلك في الليل. التقاه وكان نجيب قادمًا من الجهة الجنوبيّة للوادي، هناك توجد تلّة رمليّة صغيرة عليها بقايا لما يمكن أن يكون فنارًا قديمًا. أخذه من يده ودهسا معًا القشّ والرمل في غابة النخيل تلك. وبعد مسيرة أكثر من عشرين دقيقة، توقّف الرجلان أمام ضريح مهجور.

«اسمع يا نجيب، تعرف «أبو محمّد»، الرجل الطويل الذي يذهب ويجيء طيلة النهار؟».

«أبو محمّد؟ أعرف أبو محمّد»، أجاب الأدرد وهو يهزّ رأسه تحت قمر وادي المُلك، وأمام ضريح صغير مهجور.

«منذ ثلاث ليال، ينهض أبو محمّد من مجلسه منتصف الليل، ثم يعلّق زوجته وهِيبة من قدميها ويدلدل رأسها إلى الأرض. يضع تحت رأسها طستًا كبيرًا مملوءًا بالبسباس الهرري الجافّ، ويشعل فيه النيران فتتصاعد رائحته المرعبة إلى أنف وهيبة. يخنقها بطريقة وحشيّة، ثم يجلدها بجريد نخل طالبًا منها أن تعترف بالذي يجري بينها وبين نجيب الأدرد».

صمتَ إبراهين الفتّة وابتلع ريقه. سمع الفتّة ريقَه يتساقط في أعماقه، حتى إنّه سمع أيضًا أنفاس الرجل النائم في الضريح. «لم يقتلك بعد لأنّ وهيبة لا تزال تنكر»، قال.

حدَّق الرجلان في عينيّ بعضهما، وكان القمر يكشف بياض العيون. بين النخيل والضريح، فشل كلّ منهما في فهم ما الذي يدور في رأس الآخر. نحو خمس خطوات قادتْ إبراهين الفتّة إلى الضريح، فربّت عليه كما لو أنّه يمسح ظهر فرسه أو يعتذر له عن أمر جلل جرى.

«هنا يرقد العارف بالله أبو الحسن الدبعي، زار الباهوت وتعلَّم منه الأسرار ومات في وادي المُلك وهو يبحث عن البحر. عندما رأى البحر لأوّل مرّة شهق ومات، ودفن هُنا. مئات السنين مرّت على موته، اختفت كلّ الوديان، وجاء الجراد والطاعون والبرتغاليُّون وقضوا على كلّ ما يسكن بالقرب من البحر إلّا وادي المُلك. حفظ العارف

بالله الدبعي وادينا، وكان يمسح ذنوبنا قبل أن تكبُر وقبل أن تسخطنا».

ارتعدت سيقان الأدرد لأوّل مرّة منذ زمن. يعرف ذلك اللون من الوجل، وتلك الرهبة منذ الليالي الثلاث من يناير البعيد في أفريقيا.

«ولكن يا إبراهين، ما هذا الذي تقوله؟ أنا لا أعرف شيئًا عن تلك المرأة!».

«اسمع يا نجيب: بتْ هُنا حتى الصباح، واسند ظهرك للضريح. لا تقل للدبعي شيئًا، لا تكذب عليه ولا تصدِّق أمامه، فهو يعرف كلّ شيء. دعه يُطهّرك، ويطهّر الوادي. أنا لا أتحدّث الآن عن وهيبة بل عن أفريقيا. دع العارف بالله يطهِّرك من الخطايا. كان عليك أن تفعل ذلك منذ اليوم الأوّل، غير أنّنا لم نكن نعتقد أنّك ستمكث لدينا كلّ هذه المُدّة. جئت بخطايا أفريقيا إلى وادٍ صغير لا يستحمل كلّ ذلك. جئت بأفريقيا كلّها، كلّ أفريقيا، إلى وادٍ».

وراح يتلفَّت في الظلام، كما لو أنّه أراد أن يقيس حجم الوادي الصغير أمام أفريقيا التي قفزت إلى خياله.

«غدًا مع النجمة سآتي إليك. سأحضر لك حليبًا دافئًا وتمرًا وخبزًا، وسأشرح لك الأمور التي يتوجَّب عليك فعلها».

فجر اليوم التالي، بعد اختفاء نجمة الصباح، كان نجيب الأدرد يجتاز آخر نخلة في وادي المُلك ويدخل في الصحراء الطويلة شمالاً بمحاذاة البحر الأحمر. كان البحرُ على يساره.

نصحه إبراهين، وهو يناوله تمرة كبيرة:

«حافظ على خطواتك مستقيمة. اجعل البحر دائمًا على يسارك. أنت لا تخاف من البحر مثل الأعرج، فقد صحبته في زنجبار. لديك

ما يكفي من الخبز والتمر، أمّا الماء فلست بحاجة إليه. أرضنا ليست أفريقيا. البرتغاليُّون لم يهاجموا أفريقيا بل بحرنا ووادينا. إذا أردت أن تعرف لماذا، فما عليك سوى أن تحفر رمل البحر على بعد خمس خطوات من الزبَد، وستجد ماءً عذبًا. اشرب من رمل البحر إذا ضربك الظمأ. سترهقك شمس الظهيرة، ومهما تفعله بك الشمس وأنت وحيد بمحاذاة البحر، فهو أقلّ ممّا ينتظرك من زوج وهيبة وإخوته. أنت لا تعرف أبو محمّد، ذلك الجنّي أشدّ قسوة من الشمس التي ستلتقيها في طريقك».

قاطعه نجيب:

«ولكن لماذا صدّقت ما سمعته؟ أنت حتى لم تستمع لكلامي؟».

ابتلع إبراهين الفتّة ريقه، وكان الوقت بين الليل والصباح، ولم يكن هناك سوى نجمة الصبح وصوت موج خفيف على الضفّة الأخرى للوادي، ونهيق سُمِع مرّتين من ناحية الوادي. قال إبراهين:

«هذا حمار أبو محمّد، هل سمعت صوته؟ هذه أسرة متوحِّشة، حتى حمارها! هل سمعت؟ كلّ الحمير نائمة إلّا حمار ذلك الجنّيّ».

عاد إبراهين الفتّة إلى صلب موضوعه:

«ستجد على مسيرة أقلّ من ساعة واديًا آخر، خُذ يمينًا، واخلد إلى الظلّ. أمام البحر يحتاج المرء للظلّ، بخلاف الجبل. المسافر في الجبال ينتظر السحابة، وكلّ صخرة في الجبل خلفها أو تحتها كنان. ولا توجد أمام البحر سوى الرمال الميّتة. أنت ابن جبل في الأساس، ولا بدّ أنّهم أخبروك بكلّ ذلك».

صاح نجيب مقاطعًا:

«أنا لا أعرف من هي وهيبة، لماذا تصرّ على هذه التهمة؟»

ردّ عليه إبراهين:

«قبل عامين من الآن، قال الأعرج إنّه لا يعرف مُهرة، الزوجة الثانية لأبو محمّد. لكن مُهرة ماتت في أوّل ليلة تعذيب. اختنقت بدخان البسباس الهرري، وسقطت روحها من الأعلى إلى الأسفل. كانت معلّقة إلى السطح، وكان السطح من السعف. لا يتحمّل السعف جثّة مثل مُهرة. سقطت مُهرة وسقط السقف في طست البسباس المشتعل واحترق الدار. تركها أبو محمّد معلّقة وذهب ليستدعي شقيقها. لكنّ الدار احترقت، فعاد مهرولاً وكان قد انقضى كلّ شيء. لم يروِ أبو محمّد الحقيقة، لكنّي عرفتها بطريقتي. وعندما أحضرت الأعرج إلى هذا المكان بعد موت مهرة بنهار كامل، ارتعد المسكين وبكى، وحلف، وقبّل الضريح، وفعل أمام هذا الولي أشياءً لم يسبق أن رأيناها.. وكان يصيح يا باهوت، فصدّقته وصدّقه الدبعي، وصدّقناه كلّنا. وبعد أيّام، جلستُ إلى أبو محمّد وأخبرته بصنيع الأعرج، فحزن لمقتل مُهرة وآمن بالأعرج. ترحّم أبو محمّد على زوجته، وقال إنّها كانت تشفيه من وجع أسفل ظهره».

«ولماذا لا تفعل معي الشيء ذاته كما فعلت مع الأعرج؟».

«لأنّ وهيبة لم تمُت ولم تحترِق، وإذا صدّقتك أنا فلن يصدّقك أبو محمّد ولا إخوته. الأمر يعود إلى وهيبة في الأساس. أنت أيضًا لم تكن رفيقًا للباهوت مثل صاحبك، بل جئتَ من أفريقيا وفعلت بسلوى أفعالاً أدخلت القشعريرة لساقيَّ، وما كان لك أن تذكر تلك القصّة. أمّا الأعرج المسكين، فأنا أعرفه. إذا رأى مُهرة ودابّة أبو محمّد سيختار الدابّة».

توقّف الرجلان عن الحديث.

استأنف إبراهين الفتّة شرح خريطته:

«إذا مشيتَ كما قلتُ لك، فستجد ساحل الخوخة عندما يصير ظلّك بطولك مرّتين. توقّف هُناك وحد يمينًا، ونم بين النخيل حتى الفجر. ستحتاج لنهار كامل حتى تصل زبيد من جهة البحر. أهل الخوخة يعرفون الغرباء، ويحترمونهم. اطلُب منهم أحذية، فبعد زبيد ستحتاج لزوج من الأحذية. إذا لم تجد أحدًا يعطيك أحذية في الخوخة فلا تبتئس. صباح الغد، دع البحر على يسارك مرّة أخرى والشمس على يمينك، وانطلق شمالاً باتّجاه زبيد. عندما تصبح الخوخة خلف ظهرك والصحراء على يمينك، اقرأ سورة تبارَك، وتوضّأ بين الحين والآخر من مياه البحر. الملائكة تصحب الرجل ما دام متوضّئًا. وبين الخوخة وزبيد أرض لا يملكها أحد، وقد تهلكك. اقطعها متوضّئًا. لم أرَك تصلّي هُنا. ولكن بين الخوخة وزبيد يحتاج المرء للصلاة، فلن ترى من إنسان في طريقك. وعندما يمنّ الله عليك وتدخل زبيدًا، اتّجه إلى أحد مساجدها وصلّ شكرًا لله، واسرق زوجيْ نعال وامض إلى مسجد آخر. نم هُناك ليلتك كلّها، فلا يزال أمامك طريقٌ طويل. في الصباح، سيطعمك أهل زبيد. وإذا عرفوا أنّك قادم من الجبل، سيعطونك بعض الفاكهة والخبز، لكنّهم لن يمنحوك نعالاً. أخبرني رجلٌ من زبيد، ونحن في الحديدة، أنّهم انتظروا مئات السنين حتى تدخل النعال أرضهم، وأنّهم لا يريدون أن يستيقظوا يومًا ما وقد اختفت نعال وادي زبيد. أكَلَ الرمل الحارّ أقدامهم لمئات السنين، أو آلاف السنين، وجعل قاماتهم قصيرة. ومنذ دخلت النعال أرضهم، أصبح سكّان زبيد أكثر طولاً. هذا الكلام لا يهمُّك كثيرًا. وإذا سألوك عن اسمك، قل لهم إنّ اسمك نجيب الأشعري، وأنّك قادم من

الحجاز. زبيد مدينة الأشاعرة القدامى، استقبلت أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل، وكانا قادمين على ظهر سفينة. منذ ذلك الحين، تكنّ زبيد ودًّا ومعروفًا لكلّ القادمين من الحجاز. حتى إن صاح أحدهم في نهار زبيد أنّ نعاله سرِقت، فلن يشكّ أهل زبيد برجل قادمٍ من الحجاز. امض في سبيلك كأنّك لم تسمع أحدًا، أو كأنّ نعالَ أحَدهم لم تُسرق».

صمت إبراهين الفتّة قليلاً، ثم أكمل حديثه:

«في شبابي، قمتُ بهذه الرحلة جيئة وذهابًا، لكنَّ آخرين هلكوا. مهما يكُن. لا أعرف كيف أصف لك الطريق بين زبيد والجبل. من أيّ جبل أنتَ؟».

قال نجيب الأدرد:

«أنا من وصاب، من وصاب السافل، بالقرب من قبر الزير سالم».

قهقه إبراهين الفتّة، وكانت ملامح وجهيْ الرجلين قد بدأت في الظهور.

«ابق في زبيد يومًا أو أيّامًا، ولا تلبس النعال المسروقة. خبِّئها في صرّتك. إيّاك أن تدفع أهل زبيد لأن يفقدوا الثقة برجال الحجاز. اتّجه إلى الجامع الكبير في زبيد، واسأل من تجد هناك عن الطريق من زبيد إلى قبر الزير سالم. وإذا ضحكوا مثلي، اسألهم بهدوء رجل عَبَر البحر ونجا ولم يعد يخشى شيئًا: «كيف أصِل إلى وصاب؟»».

ثم مازحهم وابتسم وأرِهم أسنانك كلّها، وسيعرفون أنّك مسكين وأنّك بحاجة إلى مساعدتهم. الأدرد رجل مسكين في تهامة. سيدلُّونك على الوديان والسهول التي عليك أن تجتازها. أنا رجل أعرف البحر

وحسب، ولا أعرف الوديان. لكنّي أعرف جيّدًا أنّ زبيدًا هي أمّ الوديان كلّها، وكلّ واد في اليمن الأسفل يصبّ في زبيد، أمّا زبيد فتصبّ فقط في البحر».

أعاد إبراهين الفتّة ربط صرّة صغيرة كان أحضرها معه. وضعها في يمين نجيب الأدرد، وضربه على كتفه قائلاً بصوت حاسم «الله معك».

وعاد أدراجه بين النخيل.

أعدّ له إبراهين صرّة صغيرة، وضع فيها خبزًا ناشفًا وتمرًا وزمزميّة ماء ولحافًا خفيفًا وفتلةَ من سعف النخيل.

صعدت الشمس في سماء الوادي، وعندما صار لكلّ شيء ظلٌّ، خرج منصور يبحث عن رفيقه. شوهد وهو يعدو، كما لو أنّ ريبة ملأته. ناداه إبراهين الفتّة، وكان ممدّدًا ساقيه، ساندًا ظهره إلى دار صغيرة، ويشرب القهوة كما يفعل كلّ صباح. وما إن اقترب حتى بادره إبراهين «ما الأمر»، فقال إنّه فقد أثر نجيب الأدرد، وأنّ الرجل أخذ كلّ حاجاته وغاب. ولم تكن للأدرد من حاجات كثيرة. ردّ عليه إبراهين الفتّة بكلمات قصيرة، بينما كان يلقي نظره إلى البحر الأزرق الممتدّ:

«ذهب إلى زبيد، ومن زبيد سيعود إلى الجبل. يبدو أنّه كان يخطّط لذلك منذ زمن. على كلّ حال، فذلك طريقه ولا نملك سوى أن نتمنّى له رحلة آمنة».

«ماذا تقول؟» صاح منصور، فقال الأدرد «أقول ما سمعته». وبدا صارمًا، ومُريبًا، وكان يشير بيده إلى جهة الشمال، الطريق الذي سلكه نجيب فجر ذلك اليوم.

عاد منصور إلى غرفته، وكان قد شارف على الأربعين. وضع أشياء عديدة في صرّة من القمَاش، من ذلك كومة من الرصاص وزوجان من الأحذية المفتولة من السعَف.

بعد حوالى الساعة، قال رجل لإبراهين الفتّة إنّه شاهد خيال رجلٍ يخرج من الوادي، ويتّجه شمالاً بمحاذاة البحر. فقال إبراهين:

«ولكن ذلك كان فجرًا، شاهدته أنا أيضًا».

أجاب الرجل:

«لا، ليس فجرًا، بل منذ حوالى الساعة. كان يحمل بندقيّةً على ظهره».

أحسّ إبراهين الفتّة باختناق، ودخلت الغصّة من حلقه إلى رئتيه ونتأت عيناه. فلم يكُن وادي المُلك، ولا أحد في الوادي، على استعداد لسماع خبر كالذي سيسوقه إبراهين:

لقد ترَك منصور الأعرج وادي المُلك.

في ذلك النهار بكى جعفر، الطفل، وأخذ مُعين يسبّ كلّ شيء. أمّا الرجل البدين، خال جعفر، فقال إنّ منصور الأعرج سيعود، وأنّ الذي يدخل وادي المُلك ثم يغادره يعود إليه مرّة أخرى. وقالت وهيبة مساء ذلك اليوم، وقد أُفرج عنها، «لا حول ولا قوّة إلّا بالله». ورغم كلّ ما دخل رئتيها من دخان البسباس الهرري خلال أيّام، بقي شعر وهيبة هو الأجمل في وادي المُلك، وكلّ الوديان التي على البحر.

أغرقت شمس ذلك النهار كلّ تهامة بالقيض، وضربتها من حدود البحر حتى الجبال المطلّة على مكّة، وكان يومًا وحشيًّا من أيّام أكتوبر من العام ١٩٧٧. كانت الشمس قد بردَت فيه في كلّ مكان في الدنيا،

إلّا في تهامة. هناك بقيت الشمس يقظة وشابّة، جلبت الريح والأمواج وساقت منصور الأعرج ونجيب الأدرد في طريقيهما بين النخيل والبحر تارة، وبين البحر والصحراء تارة أخرى، حتى دخلا وادي زبيد كرجلين أشعريَّين قادمين من الحجاز.

لم يمض النهار حتى التقى الرجلان، منصور ونجيب، في مكان ما في الطريق، مكان ما بلا ملامح ولا يمكن وصفه. وأمضيا ما بقيا من شمس النهار في المشي، ولم يلتقيا بأحد. فعندما خرج نجيب الأدرد من وادي المُلك، كان يمشي متباطئًا ومكروبًا، فهو لا يريد اللحاق بأحد. وعندما غادر منصور الأعرج الوادي، كان ملتاعًا وغاضبًا وحزينًا، وكان ينهب الأرض بحثًا عن صديقه الذي أحبّه، عن باهوته الجديد. ولم يمض وقت طويل حتى التقاه.

وعندما أصبح ظلّا الرجلين ضعفيْ طوليهما، أبصرا نخيلاً. في الطريق، كان منصور الأعرج يحفِرُ رمل الساحل فيجد الماء مالحًا.

«لا تزال الخوخة بعيدة عنّا»، يقول لصاحبه.

«لكنَّ إبراهين الفتّة قال إنّ كلّ ماء الساحل حلو».

«لا أعتقد ذلك. فقد سمعت من مُعين أكثر من مرّة، ومن إبراهين الفتّة أيضًا، أنّ الخوخة تكون أقرب ما يمكن عندما يظهر الماء الحلو بين رمل الساحل. وأنّ هذه العلامة تخصّ فقط ساحل الخوخة».

في الطريق، وجدا تبّة صغيرة وعليها عريش صغير من القشّ والسعف، خلفها صحراء بلا علامات.

قال منصور: لعلّ فاعل خير بناها للحجيج.

قال نجيب: يبدو ذلك. من الواضح أنّها بُنيت منذ مئات السنين.

في ذلك النهار، ضحك منصور الأعرج أخيرًا. قال إنّه لا يصدّق أنَّ الإنسان عاش قبل مئات السنين، وتجادلا حتى اقتربا من الخوخة. كان جدالاً رهيبًا ومثيرًا ومضحكًا. حتى إنّ الجنّ استمعت لكلّ الجدال وضحكت، كما قال الأدرد. فجأة، جثا منصور على ركبتيه ثم ما لبث أن صرخ: «الخوخة»! فألقى نجيب الأدرد بجسده على الرمال وتقلّب مرّات عدّة. توضّأ منصور وصلّى ركعتين تجاه البحر، فهو لا يعرف إلى أيّ جهة تقع القِبْلَة. أمّا نجيب الأدرد، فدخل في الماء حتى ركبتيه وتبوّل ناحية الغروب.

دخل الرجلان الخوخة، وباتا فيها ليلاً كاملاً في العراء. كان نخيل الخوخة يشبه نخيل وادي المُلك، وكان بحر الخوخة يسحر كلّ بحار الدنيا، وكان ليلها مختلفًا.

«اسمع، إياك أن تناديني بالأدرد بعد الآن. هذه إهانة».

«وأنت، إياك أن تناديني بالأعرج».

ـ «ولكنّك أعرج يا منصور».

ـ «وأنت أدرد يا نجيب، أنت أدرد».

ثم اشتبكا في ظلام الوادي وهما مستلقيان على ظهريهما، وتصافعا وتلاكما ثم ناما حتى الفجر.

دخلت الشمس من خلل النخيل، وأيقظت نجيب أوّلاً. قلّب عينيه، فرأى سماء الخوخة لأوّل مرّة. ابتسم ونادى على منصور، ففتح الأخير عينيه.

«بعد ساعة من الآن، ستصل هذه الشمس إلى وادي المُلك»، قال نجيب، وضحك منصور.

في الطريق المهلِك بين الخوخة وزبيد، تماسك الرجلان وحافظا على خطواتهما بمحاذاة البحر. كانت الشمس تعوي، تضربهما تارة من جهة الصحراء وتارة من جهة البحر. انتصف النهار واختفى ظلّا الرجلين. ثم صعدت الشمس تجاه أفريقيا، فصار ظلّ كلّ منهما أقصر وأقصر، ثم عاد الظلّ وكبر مرّة أخرى جهة اليمين، حيث الصحراء. صار منصور يمشي إلى يمين نجيب محتميًا بظلّه، ثم يأتي الدور على منصور ليمنح ظلّه لنجيب.

«هكذا أفضل، يا لها من فكرة»، قال نجيب.

«تعلَّمتُها من هزّاع الحارس. جرّبها أثناء هروبه من صنعاء مع والده قبل عشرات السنين»، قال منصور.

وذهب يحكي لنجيب عن هزّاع.

«حلمت البارحة أنّ الشمس استعرت، وصار لها قرنان وأنياب، ونزلت إلى الصحراء وذهبت تجري خلفَنا كساحرة، وصارعتنا، وكنتُ أستغيث. وكنتَ أنتَ تصيح بأعلى صوتك يا باهوت، فتراجَعتْ قليلاً، واختفى قرناها. ثم دخلت في البحر، وصعدت في الأفق وهبطتْ خلف الماء، وحلّ الظلام والهواء البارد»، قال منصور الأعرج.

وقال نجيب:

«حلمت بسمكة بطول ذراعي ألقاها البحر. فما كان منّي إلّا أن فتحتُ فمها بيديّ، ثم شققتها وفتحت بطنها بأسناني وأظافري. أخرجت دهنها وأعطيتك قبضة منه، ووضعت الباقي في يدي. ثم وقفنا أنا وأنت ظهرًا لظهر، أنا في مواجهة أفريقيا والبحر وأنت في مواجهة الشمس والصحراء. وجعلنا ندهن قضيبينا ونستمني، ونضرب بالكفّ الأخرى على صدرينا ونصرخ ونزمجر ونتحدّى الماء والصحراء. ثم

أغرقت أنا أفريقيا وأغرقت أنت الصحراء. بعد ذلك، بدّلنا أماكننا، فلم تستطع أنت أن تغرق أفريقيا، ولا أنا الصحراء. ثم مضينا منتشيين واثقين، وبعد ساعة أو أقلّ، رأينا زبيدًا ودخلناها. قلتَ أنت:

«ليتنا فعلنا هذه الحيلة منذ البداية وقرّبنا زبيدًا».

فقلت أنا «لو اقتربت زبيد أكثر من ذلك لاحترقنا».

ثم ضحكنا كثيرًا. وعندما سَمِعنا رجلٌ من زبيد، ابتسم ولوّح لنا، وأعطانا ماء باردًا، وهو يقول تفضّلا أيّها الأشعريان الطيِّبان. وفي زبيد، سرقتُ أنا زوجيْ نعال ووضعتهما في صرّتك، وسرقت أنت فاكهة ووضعتها في صرّتي، ثم تجوّلنا في مساء المدينة كرجلين أشعريَّين قادمين من الحجاز».

١٦

لم تكد الخوخة تصير إلى الخلف من الرجلين حتى أبصرا قرية من القشّ والنخيل. جعلا القرية إلى اليمين منهما وعبرا على رمال البحر. أمام القرية، التفت نجيب الأدرد إلى الخلف وصاح:

«أنت فعلاً أعرج يا منصور. أمام البحر تبدو عرجتك بشكل أوضح. انظر إلى الخلف، انظر».

وكان يشير إلى آثار قدميّ الأعرج على الرمل.

ضحك الأدرد بصوت رجل أفريقي سمُع لأوّل مرّة في ذلك المكان، ولم يأبه منصور لذلك.

كانت الشمسُ لا تزال في الضحى. أمّا منصور، فوجد رائحة غريبة تطلع من مكان ما خلف النخيل. رجا رفيقه، فحادا يمينًا ودخلا في الظلّ بين النخيل. وقعت أعين رجال سُمُر نحيليّ الأجسام عليهما وحاصرتهما من أكثر من مكان. كان بعض الرجال عراة الصدور، ولم تكن هناك من امرأة. اقترب الأدرد ورفيقه من رجل، قال لهما إنّ

اسمه أحمد، أحمد الفاز. مدّ إليهما جرّة صغيرة من الخزف، فقال منصور «يا له من ماء عذب». أمّا نجيب، فهزّ رأسه بقوّة، ثم عاد فوضع الجرّة على بعد كفّ من فمه، وصبّ الماء إلى حلقه مباشرة، وكانوا يراقبونه. أخذ أحمد الفاز الجرّة وصبّ ما بقي فيها من الماء على الرمل، ثم ذهب يهزّها بقوّة ويضرب مؤخّرتها كما لو كان يغسلها من جنابة. ثم عاد ووضع الجرّة بالقرب من أنفه، وذهب يتشمّم رائحتها من أعلى إلى أسفل قبل أن يلقي بها على الأرض.

«لا يُشرب الناس ماء الجلّاب بهذه الطريقة»، قال أحمد الفاز وهو ينظر إلى رفاقه مستنكرًا، ثم يعود ببصره إلى وجه نجيب الأدرد مباشرةً.

«الجلّاب؟» تساءل نجيب الأدرد وهو لا يدري ما يفعل، ولا ما الخطأ الذي ارتكبه.

«من أين جئتم؟» سأل الرجل.

قال منصور: «من وادي المُلك».

وقال نجيب: «أنا من الجبل وهذا من قرية في تعِز».

«وأين تريدون» عاد الرجل يسأل، فأشار منصور بيده تجاه الشمال ولم ينبس بكلمة.

اقترب رجلٌ بدا أنّه في مطلع الستّين من العمر، وقال للرجلين بهدوء:

«إذن، فأحدكما على الأقلّ يعرِف الباهوت. الجلّاب هو باهوت هذه القرية، ويحفظ هذا الجزء من البحر. ولا شكّ أنّ أحدكما على الأقلّ يعرف أنّ لأراضي الأولياء حُرْمة ووقارًا».

امتلأت رئة منصور الأعرج برائحة طيّبة، وعلت أنفاسُه: الباهوت، إنّه صديقي، رأيته البارحة في المنام، رأيته في ليل الخوخة التي لا أعرفها. تطايرت تلك الكلمات في رأس منصور الأعرج، وأخذت ضربات قلبه في التسارع. إنّه يعرف ما الذي يجري في أعماقه، ويفهم ما الذي يقوله قلبه عندما يتسارع على ذلك النحو. ويبدو أنّه عرَف طينة الأرض التي كان يقف عليها آنذاك.

أخذهما الرجال بإلحاح من الأعرج إلى الخلف من واحة النخيل تلك، وثمّة أبصر منصور ورفيقه ضريح الوليّ أحمد بن أبي بكر مقبول الأهدل، المعروف بالجلّاب.

أغمض الأعرج عينيه وجعل يتنفّس بعمق، ويحرّك شفتيه. ثم اقترب من الضريح وقبّله عشر قبلات. فتح أزرار قميصه، وكان يرتدي زيّ أهل البحر، ومسح صدره على الضريح. ثم جلس على ركبتيه وهمس بخشوع:

«دلّني يا وليّ الله، دلّني».

مغمض العينين، تذكّر الزهراء في عقاقة، إلى الغرب من مدينة تعِز، وهو يتوسّل إليها لأجل أمّه. ذهب ينادي صاحب ذلك الضريح:

«وأمّي، وأمّي». ونسي أباه كالعادة.

بقيت عيون الرجال مثبّتة على الأعرج، والأفواه نصف مفتوحة. وقف منصور أمام الجلّاب، ثم انسحب خطوات إلى الخلف، واستدار. كان قد ترك بندقيّته على بعد خمسين مترًا على الأقلّ من الضريح. التقطها، ووضع صرّته على كتفه، ومضى. بمحاذاته، وقف رجل من أهل قرية قطابا، قال إنّ اسمه أحمد الفاز، وجعل يحدّثه والرجل غارق في فيضانه الذاتي.

قال له الرجل:

«سُمِّيت قريتنا بهذا الاسم منذ مئات السنين».

فالتفت إليه منصور مستغربًا. لكنّ الرجل، وكان قد داس للتوّ على شوك، جثا ومسح قدمه اليسرى، ثم استوى قائمًا وهو لا يزال يتكلّم:

«كنّا نصنع أقطابًا للسفن، خشبًا للسفن. كنّا نصنع السفن قديمًا. الآن لم نعُد نرى السفن، ولا تعلم السفن التي تمرّ في الجانب الآخر من البحر بوجودنا. حتى الوليّ الجلّاب لم يعد يجلب السفن إلينا كما كان، أصبح كبيرًا في السنّ، فقد مات منذ مئات السنين».

كان نجيب الأدرد يتحدَّث مع الرجل الستِّينيّ عن شيءٍ آخر لم يتنبّه له منصور. تداعى أحمد الفاز، الذي استسلم للحديث مع الأعرج على نحو عجيب. قال لمنصور، وقد أصبح الأخير قادرًا على رؤية رمال الشطّ:

«الأيّام تسوء. عندما وُلِدت، أسماني أبي أحمد الفاز. كانت القرية قد يئست من قدرة الوليّ الجلّاب على إحياء الشاطئ والقرية كما في الأيّام الخوالي. أو حتى الأسماك. صار علينا أن نبحر إلى أعالي البحر حتى نجد الأسماك. في القديم، كان الوليّ يجلبها إلى الشطّ، وكان الأجداد يلتقطونها من على رمل القرية. أصبحنا قرية ميّتة منذ زمن بعيد. لذا، حاول أبي أن يفعل شيئًا. في البداية، صنع قاربًا كبيرًا وركبه إلى ميناء الفازة في الجنوب. هناك قال للناس إنّنا أصبحنا نصنع السفن كما في السابق. لكنَّ أحدهم سرق القارب في الليل، فاختفى الدليل الذي أحضره أبي وعاد مشيًا على الأقدام. أخذت منه العودة نصف نهار».

التقط الرجل أنفاسه، وكان يتحدَّث كرجل خائفٍ من نفاد الوقت المتاح للحديث:

«عندما دخل والدي قرية قطابا من الجهة الشماليّة، كانت أمّي قد ولدتني. أسماني أبي أحمد الفاز تيمُّنًا بالوليّ الصالح أحمد الفاز، ذلك الذي يحرس ميناء الفازة في زبيد ويجلب السفن والأسماك. توفّي هو الآخر منذ مئات السنين، لكنّه بخلاف الجلّاب لا يزال قادرًا على جلب السفن إلى الميناء. ربّما لأنّ ضريحه لا تفصله عن البحر سوى بضع خطوات. أمّا نحن، فدفنّا عظام الجلّاب في الصحراء خلف النخيل، ولم تكن فكرة جيّدة. قال عمّي لأبي إنّه بدلاً من أن نُسمّي أبناءنا بأسماء الأولياء القادرين، لنجرّب نقل رفَات الأولياء الضعفاء إلى مكان بالقرب من البحر، وكان يقصد الجلّاب. اهتزّت القرية لهذه الفكرة، وقيل إنّ السحاب بقي مخيِّمًا فوق الوادي أسابيع، ولم تُرَ الشمس إلّا بعد مضيّ أكثر من ٣٤ يومًا قمريًّا. ظنّ الناس أنّ سبب ذلك مردّه إلى فكرة عمّي والطريقة التي أهان بها الوليّ. وأنّ الشمس ربّما لن تعود. وقالت أمّي إنّ السبب هو أبي، إذ كيف يُسمّي ابنه أحمد الفاز، هكذا، بالرّغم من أنّ اسمه مقبول البرق. وكانت تقول لا الله ولا الوليّ سيتقبّلان ذلك».

ودّع الرجلان أهل قطابا بكلمات، ونظر الطرفان إلى بعضهما بعضًا لفترة وجيزة دون أن يُبدي أحدٌ من الطرفين حركة ما. بدا المشهد شبيهًا بزيارة مسجونين من وراء لوح من الزجاج العازل.

قال الستّيني، وكان نصفه الأعلى عاريًا ومحنيًّا:

«ستمرّون بقرية الغويرق عندما تصبح الشمس في كبد السماء. لا تقفوا عندها، فهي قرية من القشّ، البعوض فيها لا يرحم أحدًا،

خصوصًا المسافرين. بين الغويرق ورأس حبشة مسيرة ظهيرة. استعينوا عليها بالصبر والجَلَد والماء. عندما تجتازون رأس حبشة ستقتربون كثيرًا من الفازة، ستدخلونها بعد صلاة العشاء في أسوأ الأحوال».

أشار إلى رجل من الموجودين، فأعطاهما جرّتيْ ماء صغيرتين.

وبينما كان أهل القرية يتأمّلون ظهريّ الرجلين العابرين على رمل الشطّ، وكانت بندقيّة منصور الأعرج تبدو لهم كرأس فنار، صاح الستّينيّ:

«يمكنكما أن تملآ الجرّتين من الغويرق، لكن لا تمكثا هُناك».

كانت شمس ذلك النهار غريبة بعض الشيء، قال نجيب في البدء. ثم عاد بعد وقت قصير، فصاح «يا لها من قحبة».

نفدت آخر قطرة ماء، فوقف نجيب في مواجهة الشمس غارسًا قدميه في ماء البحر. لعق الجرّة، ثم ألقى بها إلى الشمس، فسقطت في الماء على بعد أمتار قليلة ولم يُسمع لها دويّ. حفر الأدرد في الرمل ووجد ماءً مالحًا. حفر عشرات الحفر وكان يلهث، ويتذوّق الماء الطالع فيجده مالحًا، ويغمغم «شمسٌ قحبة».

أمسكه منصور من كتفه وساعده على الوقوف. كان لسان الرجل جافًّا مثل خزف، وغرقت عيناه إلى الداخل. ارتجفت شفتاه وأطراف أصابعه، وبدأ يرى أشخاصًا ويسمع أصواتًا. ساور الخوف منصور الأعرج، فلم يسبق أن رأى صديقه في مثل تلك الحال. هاجم الأدرد رفيقه ولكمه في فمه حتى أوقعه على الأرض. أخذ البندقيّة ثم وجّهها إلى صدر منصور، وكان يصيح به:

«اعترف، اعترف أنّك قتلت عمّي، اعترف أنّك قتلت العرب. اعترف أيُّها الحقير أنّك قتلت العرب. لن ينقذك الأفارقة منّي الآن.

أنا هنا سيّد المكان، وأفريقيا بعيدة».

وكان منصور يتوسّل إليه. فكّر بالإمساك بماسورة البندقيّة، لكنّه طرد الفكرة. استدار نجيب ووجّه البندقيّة إلى الشمس وأطلق الرصاصة الأولى، وهو يصيح «خذي أيّتها القحبة».. فأصابت الكلمة تلك قلب الأعرج. أن يصف أحدهم شمس المحيط بالقحبة. أراد أن يطلق الرصاصة الثانية، لكنّ ماسورة البندقيّة لا تطلق سوى رصاصة واحدة في المرّة الواحدة، وكانت أيضًا فارغة. ألقى بالبندقيّة على الرمل، وبجسده أيضًا. وضع منصور البندقيّة على ظهره، وضمّ ساعده إلى جنبه الأيمن احترازًا، ثم اقترب من رفيقه الذي بدأ يفقد وعيه. رشّ عليه من ماء البحر، وقرأ عليه ما يحفظه من كلام الباهوت، ونظر بائسًا وموجوعًا إلى الشمس، وكانت قد مالت جهة الغرب قليلاً وصنعت له ظلًّا. نظر إلى عرجته التي ثبّتتها الشمس قبل زمن بعيد في حذران، فاستعاد شكيمته وثقته.

في ذلك النهار، كان ممكنًا أن يُشاهد رجلان، أحدهما يحمل الآخر على ظهره. ولم يكن هناك من أحد سوى الشمس في الأعلى، البحر إلى الغرب، والصحراء إلى الشرق.

وعندما غمر الظلام الصحراء، أحسّ منصور برائحة منازلَ بالقرب. ترك صديقه على الرمل ودخل القرية. صاح بأعلى صوته، فخرج رجلان، أحدهما يحمل سكّينًا، والآخر يمسك قضيبًا من الخشب. لم يتكلّم منصور، فقط أشار إلى البحر. فرأى الرجلان، وكانا خارجين من منزلين متجاورين، جثّة على مقربة من البحر. هرول أحدهما إلى الجسد الممدود على الرمل، وأحضر الآخر ماء ونارًا. شرب نجيب الأدرد في تلك اللحظات كبئر بلا قرار. لم يمض سوى وقت قصير حتى كان يستعيد وعيه، ويتأمّل الرجال الثلاثة في غرفة من

القشّ. قال الرجلان إنّهما صنعاها للمسافرين، ولم يتحدّثا سوى بكلمات قليلة. كان نجيب الأدرد، كلّما حاول فتح فمه وتفوّه ببعض الكلمات، يقترب منهم أحد الرجلين ويضع الجرّة بالقرب من فمه، قائلاً «اشرب».

صباح اليوم التالي، سأل نجيب الأدرد رفيقه ـ وهما يغادران:

«لماذا لا يتكلَّم أهل هذه القرية؟»

فقال منصور: «لا أدري».

كان نجيب قد استعاد قدرته ونشاطه، فسأل منصور الأعرج:

«ما الذي حدث البارحة! أنا لا أتذكَّر شيئًا.. شعرتُ بالتعب والخوف، ولا أدري ما حدث بعد ذلك».

تحاشى منصور عينيّ رفيقه، وقال وهو ينظر إلى الأمام، كما لو كان يتوقّع رؤية شيء:

«بقي لنا القليل، أظنّ أنَّنا نقترب الآن من ضريح أحمد الفاز. كأنِّي أجد رائحة مسجده، أعرف هذه الرائحة».

بعد حوالى الدقيقة، قال نجيب:

«لا أعتقد. لا يزال ميناء الفازة بعيدًا. أعرف رائحة الميناء من مسيرة يوم».

١٧

يقع ميناء الفازة على البحر الأحمر إلى الشمال من مدينة الحُديدة ومينائها. قبل مئات السنين، بُني الميناء، وكان عتبة زبيد إلى العالم. كانت السفن القادمة من جيبوتي ومن الهند وعدن تنزل في الميناء، وتبيع اليمنيين التوابل والأقمشة. وعندما قدم إليه الرجلان، نجيب الأدرد ومنصور الأعرج، عشيّة الثالث عشر من أكتوبر ١٩٧٧، كان ذلك الميناء قد أصبح جزءًا من الماضي. ولكي نتعاطف مع أهل الميناء، من الأفضل القول إنّه صار جزءًا من التاريخ.

بقيت الأطلال والرائحة القديمة التي حفظتها صخور الميناء.

اختفت شمس ذلك اليوم في الجهة البعيدة للبحر وحلّ الظلام. ظهر رأسا الرجلين أوّلاً، وكانا حاسرين. يميل شَعر منصور إلى النعومة. يُعتقد أنّه ورث نعومة شعره من أمّه، ولكنّه لا يمشّطه سوى صباح الجمعة كما كان يفعل أبوه. أمّا نجيب الأدرد، فكان شعره خشنًا وأجعد. كان يقول إنّ ذلك بسبب أفريقيا، وأنّه لولا البحر

وأفريقيا، لكان شعره مثل شعر جنّيّة.

بدا ميناء الفازة مكانًا كبيرًا ومهجورًا، سوى من بعض منازل الطين القديمة وبعض عرائش القشّ وقوارب الصيّادين بالقرب من مرسى قديم. في الجهة الجنوبيّة من الميناء، كان ثمّة ضوء باهت يمكن رؤيته من خلال نافذة حجريّة وحيدة في مبنى صامت يضربه الظلام من كلّ جنباته. وبالقرب من الماء، لمحا في الظلام هيكلاً لمبنى قديم. قال منصور لرفيقه:

«أظنُّه ضريح الشيخ أحمد الفاز. سأنام جوار وليّ الله الليلة».

مسح نجيب الأدرد أنفه بأصبعيه، السبّابة والإبهام، وأخذ نَفَسًا عميقًا:

«أعتقد أنّ ذلك المبنى المظلم هو مبنى الجمارك القديم. في كلّ ميناء جمارك. سأنام هناك».

يعرف نجيب الموانئ والبحار. ويعرف أيضًا، من خبرته، أنّ لكلّ ميناء مبنى للجمارك. وفي ذلك المبنى نام نجيب الأدرد ليلته حتى الفجر، لم يزعجه فيها سوى هدير خفيف للماء وهو يضرب جنبات المرتفع الصخري، حيث ضريح أحمد الفاز.

ونام منصور الأعرج ليلته تلك في حرم الضريح إلى الجهة الجنوبيّة منه، حيث توجد مقبرة صغيرة. وفي الصباح، أيقظته حركة بضعة أشخاص قَدِموا للصلاة، أحدهم أدنى الفانوس من وجه منصور، فاستيقظ الأخير وعرّف بنفسه:

«منصور الأعرج، مسافر، جئتُ من وادي المُلك».

فقال الرجل: «قم وصلّ، لا يزال أمامك نهار كامل حتى تبلغ الحُديدة».

صلّى منصور خلف إمام نحيل الجسم يضع عمامة بيضاء خفيفة على رأسه، ينزل أحد طرفيها بشكل عمودي إلى ما بين كتفيه. كان يقرأ من سورة الواقعة. وعندما وصل إلى جملة «فأمّا إن كان من المكذِّبين الضالِّين»، قال منصور الأعرج وهو يتثاءب «آمين»، ومدّ بها صوته. وذهب القوم يعاتبونه بعد الصلاة. قال له الإمام، ولا ندري ما كان اسمُه:

«الشارد في الصلاة كأنّه لم يصلّ».

قال رجلٌ آخر «حتى وإن كان مسافرًا». أمّا رجلٌ ثالث، فنصحه بأن يترك شيئًا لأحمد الفاز.

راح منصور يتأمَّل المسجد المطلّ على البحر. نزل من الجهة الغربيّة بضع درجات، فوجد قدميه وقد أصبحتا في الماء، فقال لنفسه: يا الله. صعد إلى المسجد، وذهب يتأمَّل جنباته وزواياه ويتذكَّر مسجدًا في قرية بعيدة كان يقع بعيدًا عن النهر. كان ذلك منظرًا مهيبًا بالنسبة لرجل اسمه منصور لم يرَ بحرًا في طفولته، ولم يتخيّل قبلاً قبابًا على البحر.

يُقال إنّ الشيخ أحمد الفاز، وكان متصوِّفًا، بنى ذلك المسجد في القرن السادس الهجري.

قال نجيب الأدرد إنّ شيئًا ما مرّ على قدميه وهو نائم في مبنى الجمارك، وربّما كان ثعبانًا، فنهض فزعًا وخرج. أمام مبنى الجمارك، دار نجيب ببصره في الأرجاء، فرأى ثلاث قباب كبيرة تعلو مسجدًا إلى جهة الجنوب من الميناء، وأطلال مبانٍ تقول إنّ المكان كان عامرًا يوم ما. أبصر منارة وحيدة لا يعلوها شيء في ذلك المكان، لكنّها بدت له كامرأة عجوز.

استعاد قوّته وتثاءب مرّتين أو ثلاثًا، ثم غادر بحثًا عن منصور.

«لا بدّ وأنّ منصور تحت واحدة من تلك القباب»، غمغم الأدرد.

من الجهة الشماليّة للمسجد، نادى الأدرد بأعلى صوته، فخرج منصور. ومن باب آخر، خرج رجل أسمر مسنّ، يبدو أنّه يعمل سادنًا لضريح أحمد الفاز. حدّجَ السادنُ المسافرَين بعينيه، ثم عاد إلى الداخل. كانا يتحدّثان، فيما يبدو، عن الوجهة القادمة، لكنّ الرجل المسنّ خرج إليهما مرّة أخرى من الباب الذي خرج منه منصور، ونصحهما بأن يسلكا درب النخيل.

سأله منصور «وهل سيوصلنا درب النخيل إلى الجبل»؟

قال السادن:

«عندما يختفي النخيل، يبدأ الجبل في الظهور. هكذا دائمًا على مرّ الدهر. ستمرّان أوّلاً على مدينة زبيد. سيستغرق الوقت ضحى حتى تبلغا المدينة».

وسأل نجيبَ ما إذا كان صلّى الفجر في مبنى الجمارك، فأجاب نجيب «نعم». قال الرجل: «صلّ مرّة أخرى هُنا، كان ذلك مكان المخطئين». فكّر نجيب للحظات، ثم خطرت له فكرة أن يقول إنّه صلّى خارج مبنى الجمارك.

قبل أن ينتصف النهار، دخل الرجلان مدينة زبيد من بابها الغربي، باب الشبارق. أصابتهما الرهبة أوّل الأمر، ثم الدوار والقشعريرة. لمس منصور سور المدينة بيديه، وكان سورًا من الياجور، وكان هو مغمض العينين. فعل نجيب مثله، وهمس لرفيقه «كأنّه جدار سفينة». لكنّ منصور هزّ رأسه قائلاً «بل جدار ضريح»، وكان يحدِّث نفسه برؤية الكثير من الأضرحة في تلك المدينة. فكّر برفاق الباهوت

وتلامذته كما سمع في يفرُس، وخطر بباله أنّه سيزور الكثيرين منهم.

هناك، في يفرُس التي على الجبل، سمع أنّ الباهوت ابن علوان كان عالمًا رسوليًّا، وكانت زبيد مدينة رسوليّة، وكانت العاصمة الشتويّة للسلطان الماكث في مدينة تعز. ولطالما اصطحب معه الباهوت في رحلته من تعز إلى زبيد. حدث كلّ ذلك، كلّ تلك الأشياء التي كان قلب منصور يهجس بها، قبل مئات السنين، ولا ندري كيف كان منصور يحسب الزمن.

«يا الله» هتف الأعرج وتحسَّس صدره، لمجرّد أن خطر في خياله أنّ الباهوت مرّ بالمدينة. وتمنّى لو أنّ للباهوت قبرًا آخر هُنا، لو أنّه مدفون أيضًا في زبيد، إذن لبقي في هذه المدينة حتى الأبد.

وما إن اجتاز عتبتيّ باب الشبارق حتى بدت له زبيد أرضًا لمولاه الباهوت.

تقع مدينة زبيد على بعد ١٦ ميلاً من البحر و١٦ ميلاً من الجبل، وتبدو كأنّها معلّقة بينهما، وكأنّها ملك للجبل والبحر معًا.

سيكون على الرجلين أن يعبرا المدينة وأن يتزوّدا منها. ومن وسط المدينة، سيتوجَّب عليهما أن يسلكا جهة الغرب، وأن يغادرا مدينة زبيد من باب النخيل، الباب الغربي. مثل كلّ الغرباء الذين يدخلون مدينة زبيد لأوّل مرّة، أحسّ الرجلان، منصور ونجيب، برجفة واتّسعت حدقات عيونهما. أمّا نجيب، فقال إنّ كلّ شعرة في ساقيه وقفت وفتح فمه الواسع بذهول، ومن فرجة أسنانه دخلت رياح زبيد كلّها.

كانت زبيد، على مرّ الأيّام، تمنح تلك الرهبة للغريب قبل أن تفتح أبوابها. وعندما دخلها السلطان الرسولي قبل أكثر من ستمائة

عامًا من جهة الشمال، بعد أن أعاد عمّاله ترميمها، أصابه دوار كاد يطيح به من على خيله، لولا أن تداركه رجلان من حرسه. قال لهما، وهو يمسح عرقًا على جبهته:

«هذه هي زبيد».

وعندما قال أهل الجبل، في غابر الأيّام، إنّ زبيدًا أرض تخصّهم، وكانوا يملكون القوّة والجبروت بخلاف أهل البحر، قال لهم أهل البحر إنّها أرض تخصّ الجِمَال والخيول، وأنّهم ليسوا سوى رعاة لها. وقال حكيم من المدينة، وكان قد تجاوز الثمانين ويعتقد أهل الجبل أنّه ساحر:

«لندع الجَمَل يحكم بيننا».

أُطلق الجمَل من مكان قريب من البحر. يقال إنّ حوافره وُضعت في ماء البحر أوّلاً ثم تُرك ليشقّ طريقه. مرّ الجمل بمدينة زبيد من جهتها الغربيّة حتى غادرها من ناحية الشرق. أرسل كلّ طرف رجلين يرافقان الجمل. وعندما اقترب من الجبل، توقّف عن المشي، فضربه مندوبا أهل الجبل على قوائمه الخلفيّة بقسوة، لكنّه برك وزمجر وخرجت رغوة كثيفة من فمه وسالت على عنقه، وهزّ رأسه بعنف حتى كاد خطامه يشقّ فمه. عند ذلك، صرخ الرجلان المنتدبان من أهل المدينة:

«حكم بيننا الجَمَل. الجَمَل لزبيد وزبيد للجَمَل.

وهتف الآخر: «والحمَار للجبل، والجبل للحمار».

فأمسك رجلٌ من أهل الجبل حربته، وزمجر:

«كفّوا عن هذه الألاعيب يا أبناء السحرة».

لكنَّ رفيقه الجبليّ أمسك بيده، وعاد التهاميّان بالجَمَل إلى المدينة. وبالقرب من بابها الغربي، أنشدا الأشعار.

ذهبت تلك القصّة من جيل إلى جيل، وبقيت تُروى في زبيد، ومع الأيّام، نسيها كلّ أهل الجَبَل.

أمسك منصور بيد رفيقه، وقال له:

«صباح اليوم التالي لمقتل أحمد الثلايا، هربتُ من وادي حذران».

تأمّله رفيقه، في انتظار أن يُكمِل الرجل ما يريد قوله. فلمنصور دائمًا أسرار، كما يعتقد نجيب الأدرد. قال منصور بعد صمت قصير:

«صباح اليوم التالي لمقتل الحمدي هربتَ أنت من وادي المُلك».

«هاربان»، خرجت تلك الكلمة من فم نجيب الأدرد، ولحقها بقهقهة عظيمة.

ظهيرة ذلك اليوم، كان الهاربان يستلقيان في بهو الجامع الكبير في مدينة زبيد. أدرك نجيب النعاس. أمّا منصور فتاهت عيناه في عظمة المسجد، ولفت انتباهه أنّ المسجد الكبير لا يحوي ضريحًا واحدًا، فأحسّ بالشفقة بادئ الأمر. وعندما انتهى رجلٌ من أداء ركعتين بالقرب منه، دنا منه منصور وسأله عمّا إذا كان هنالك من ضريح، فابتسم الرجل وقال إنّ تلك خرافة دينيّة لا توجد في زبيد مدينة العلم. وذهب الرجل، وكان يضع عمامة بيضاء على رأسه وله ذقن سوداء وخدّان أملسان، يستشهد بالأحاديث والآيات، وذكر قصّة من دين النصارى.

أمّا منصور الأعرج، فسمع كلّ ذلك الكلام لأوّل مرّة في حياته

وفهمه جيّدًا، ولم يصدّق منه شيئًا. لكنّه أثار اهتمامه. مأخوذًا بالكلام الجديد كلّيًا، سأل منصور الرجلَ الآخر، وبدت عيناه متوسِّلتين، ممّا أعطى لسؤاله مصداقيّة:

أين يمكن أن يدرس المرء هذه الأمور؟

ذهب الرجل يتفرّس وجه منصور. «هل أنت صوفي؟» سأله، فقال منصور «كنتُ حارسًا لضريح الباهوت ابن علوان»، فقال الرجل «هممم. الله المستعان».

ثم نهض وغاب في المسجد الكبير، ولم يره منصور بعد ذلك.

قام رجلٌ في المقدِّمة وأذّن لقيام الصلاة. وقف منصور في الصفّ الأخير معتقدًا أنّ عرجته لفتت انتباه كلّ أولئك الذين كانوا مضطجعين في المسجد منذ الضحى وحتى صلاة الظهر.

غادر منصور الأعرج المسجد من أكبر الأبواب، فوجد رفيقه في انتظاره واقفًا. وهما يتأمّلان المدينة ويحرِّكان أقدامهما ببطء، قال نجيب إنّه سرق زوجيّ نعال، فقال منصور الأعرج «الله المستعان».

كانت زبيد هادئة وحيّة. ولا توجد مسافات بعيدة بين مسجد وآخر. سأل الرجلان أناسًا من أهل زبيد عن الطريق إلى الجبل. قال نجيب إنّه لا يثق بالناس، وذهب يسأل أكثر من شخص. نصحهما أحد الناس بركوب الجمل، وقال آخر: «توجد خيول»، وقال ثالث: «اكتريا حمارين». لكنَّ منصور تجاهل كلّ ذلك، وسحرته المدينة بروحها وسكّانها وظلالها.

«حتى وإن كانت مدينة بلا أضرحة»، كان يغمغم.

أمّا نجيب، فقال «إجابات الرجال متشابهة، هذه مدينة لا تخدع الغريب».

نهره منصور:

«قلتَ لك إنّ سؤالاً واحدًا في زبيد يكفي. خرّبت أفريقيا فطرتك».

وفي زبيد، تصبّ كلّ وديان اليمن، أمّا وادي زبيد، فلا يصبّ سوى في البحر.

سلكا طريقًا طويلاً يغطّيه النخيل. وكان الناس يمرّون من على الجانبين فوق ظهور الجمال أو الخيول. وعند الغسق، اقترب الرجلان من نهاية وادي زبيد. ومن جهة الجبل، التقيا عشرات الرجال يدخلون زبيدًا على الحمار أو سيرًا على الأقدام. سمعا رجلاً راكبًا على حمار يقول لآخر «قال إنّك لم تردّ له ديْنه». وسمع منصور الأعرج امرأة تجرّ حمارًا وتقول «عند الله تلتقي الخصوم».

وقبل أن يبلغا باب النخيل، أبصرا رجالاً يحملون محفّة عليها إنسان. تنحّيا، فعبرت، وكان في المقدِّمة رجلٌ يردِّد «قال موسى ما جئتم به السحر إنّ الله سيبطله إنّ الله لا يصلح عمل المفسدين». تطوّع رجل من أهل زبيد بإعلام الرجلين الهاربين بحقيقة المشهد الذي مرّ أمامهما:

«هؤلاء أهل الجبل. يحضرون مرضاهم الممسوسين بالجنّ إلى الشيخ أبي بكر»، ولم يقل لهما من هو أبو بكر. لكنّ رجلاً آخر، ولم يكن عليه من الثياب الكثير، علّق على كلامه بالقول إنّها ليست عادة كلّ أهل، فبعضهم يحمل المرضى على الأكتاف إلى طبيب في الحُديدة. نظر إليه الآخر منفعلاً:

«لكنّهم يموتون في الطريق».

فقال «ليس كلّهم».

مساء الرابع عشر من أكتوبر ١٩٧٧، غادر الرجلان، نجيب ومنصور، مدينة زبيد ودخلا في طريق طويل من النخيل ثم الصحراء. ومع حلول الليل، اقتربا من الجبل، وناما بالقرب من طريق السيل.

وبالأمس، ١٣ أكتوبر ١٩٧٧، اجتمع رئيسا اليمن، الجنوبي سالمين والشمالي الغشمي، في صنعاء، ودفنا جثّة إبراهيم الحمدي. وسأل رجلٌ يمسك عصا، ويسند ظهره إلى باب المدينة الشرقي:

«إلى أين أنت ذاهب بهذه البندقيّة؟».

فأشار منصور بإصبعه، وكان يمرّ بالقرب من ذلك الرجل، ناحية الجبل. لكنّ الرجل تجاهل المسافِرَين والتفت إلى آخر كان يجلس إلى جواره ممدّدًا رجليه، وقال له:

«أمس دفنوه. دفنوه أمس. لن يرى أهل الجبل خيرًا في حياتهم».

١٨

قبل ربع قرن من الزمن، هبط نجيب الأدرد الطريق من وصاب السافل ودخل أرض تهامة. مرّ عبر قرى وصاب المتناثرة كالنجوم، ثم حاد شمالاً بين الجبال مهتديًا بطريق السيل ودخل وادي رماع، وكان الوقتُ صيفًا. ولا يغذّي وادي البحر، كما يفعل رمَاع، فهو ينقل إليه سيول الشمال وجثث المسافرين.

سنة ١٩٥٥ م، دخل نجيب وعمّه أفريقيا من الشرق، أفريقيا البكر، وتركا رماعًا يذرع المسافة بين الجبل والبحر، كأنّ لا وادٍ في الأرض سواه.

وبعد زهاء ثلاثين عامًا من ذلك الزمن، سينقل وادي رماع إلى البحر جثّة أحمد الوجرة، أحد رفاق نجيب الأدرد، وهو اسم لا بدّ أن نحفظه جيّدًا. سيدخل ماء المطر في الثقوب التي حفرها الرصاص على الجسد. وعندما تتشبّع جثّة الوجرة من ماء ريمة ووصاب، ستطفو. وفي طريق السيل الجافّة، ستنتظر جثّة الوجرة وقتًا، ولن يجرؤ أحد

على الاقتراب منها أو دفنها. فلا أحد في وصاب جسُر على إغضاب القاتل. ثم سيحمل السيل جثّة أحمد الوجرة ويلقيها في البحر بعد مسيرة نهار. وفي صنعاء، سيشعر القاتل بالخلاص، وسيتحمّم ذلك اليوم مرّات عديدة. سيعيش القاتل بعد ذلك سلطانًا، ويصنع المزيد من الحروب إلى أن تهزمه الطائرات بعد عشرات السنين.

جاء نجيب من قرية الدكّة، وتقع بالقرب من سوق الثلوث على مرتفع يفصل بين وصاب العالي ووصاب السافل. كان نجيب الأدرد يسمّى في ذلك الزمان «نجيب علي الوثني»، وكان لا يزال طفلاً. أمّا جدّه الوثني، عند ولادته، فكان قد صار إلى جهنّم، كما سمع منذ الطفولة.

وفي تهامة، غيّر عمّه اسمَه إلى «نجيب الوشلي» تحاشيًا لنظرة الاستهجان التي يرميه بها الحجيج. وعندما ألقته السفينة بين نخيل وادي المُلك، بعد ربع قرن، أطلق عليه سكّان البحر «نجيب الأدرد». في تلك الليلة، أحسّ نجيب الوشلي ببرودة وطنه وأحبّ اسمه الجديد.

منح التبابعة القدماء وصابًا اسم «ذي مرثد»، وكانت تعني بلغة ذلك الزمان «الأرض التي بين مائين». وكانت محاطة بطريقين للسيل.

على مرّ الأزمان، خاض الأئمّة والقبائل كلّ حروب الشمال ومكثت وصاب في مكانها ناظرة تجاه البحر، ولم تلتفت قطّ لصنعاء. وفي الأزمنة المتأخِّرة، كتب مؤرِّخ على طريقة من سبقه:

«سار سيّدي فلان بجيش من القبائل، والتقى بسيّدي فلان، ودارت بينهما حرب طاحنة. ثم أذَّن الظهر، فذهبا إلى الصلاة والتقيا في المسجد واتّفقا، وأهلك الله القبائل».

شيءٌ ما في تاريخ وصاب حفظها، فلم تهلك مع القبائل.

وعندما خاضت وصاب حروب الشمال، وكانت تفعل من وقت لآخر، فقد خاضتها دفاعًا عن البحر والوديان وإلى جانب قبائل الزرانيق في صحراء تهامة. لم تكن تفكِّر بعروش صنعاء الملتهبة، ولديها ما يكفيها من الجبال، ولا تخوض الحرب سوى في الصحراء. كانت وصاب تخاف على شبابها من السفر إلى الأعلى، تجاه ذمار وصنعاء. وبدلاً عن ذلك، تربّيهم على حبّ البحر والوديان وطريق السيول. وعلى مرّ الأيّام، خسرت تلك البلدة شبّانًا مثقّفين ذهبوا إلى صنعاء. وهناك قالوا الكلمات التي تجلب اللعنة، فلم يعودوا إلى وصاب. وفي العام ١٩٤٨، استيقظتْ على جيوش الأئمّة تقف على مشارفها بحثًا عن رجل. فرّ أهل وصاب إلى الجبال البعيدة. وهناك خبّأوا نساءهم ودفنوا الذهب. فلا ينبغي أن تترك النساء ولا الذهب في طريق جيش الإمام.

يقول الوصابيُّون القدامى، الذين ماتوا قبل مئات السنين أو قُتلوا، إنَّ الزير سالم كان أحد ملوكهم. وأنّه مدفون بالقرب من بئر جسّاس. يقولون إنَّ ملكة حكمتهم قبل زمن سحيق، وكانت تلبس زيّ رجل، وكانوا يعتقدون أنّها كذلك بالفعل. لكنَّ رجلاً من وصاب اطّلع عليها عارية، وكانت تجامعُ نفسها، وأفشى سرّها. الملكة الغاضبة غيّرت أسماء قرى وصاب كلّها، مانحة إيَّاها أسماء متوحِّشة وغريبة. بعض القُرى حصلت على أسماء تنشر القشعريرة في الجسد كلّه. ولأنَّ الزير سالم هو الضيف الأكبر الذي دخل وصاب قبل مئات السنين، فلا بدّ من فعل أشياء تنبِتُ الطمأنينة في قبره، فأسماء القُرى بالقرب منه لا تمنح الميّت أيّ قدر من السكينة. لأجل ذلك، وهذا مجرّد تخمين، منحوا القرية القريبة منه اسم «قرية كُليب»، والبئر الواقع على مسافة

ليست بالبعيدة «بئر جسّاس». على الأقلّ لن يشعر بالغربة، فجسّاس وكليب إلى القرب من ضريحه، وهكذا صار الزير سالم بين أهله.

مسكونًا بأسطورة الملكة تلك، غيّر نجيب الأدرد، في زنجبار، اسم معشوقته العمانيّة سلوى إلى نجيبة، وقال إنّه اسم لملكة قديمة. ولم تكن المرأة العمانيّة قد سمعت عن ملكة من قبل. أمّا المرأة التي غيّرت أسماء القرى في وصاب، فلم يكُن اسمُها نجيبة. الحقيقة أنّ أهل وصاب لم يعثروا لها على اسم حتى الآن.

ها هو نجيب يقف الآن من جديد أمام الجبل، أمامه طريقان. صارت مدينة زبيد إلى الخلف من ظهره. إمّا أن يسلك جنوبًا قاطعًا وادي زبيد في اتّجاه جبل راس، أو أن يسلك دربًا آخر، شمالاً بمحاذاة وادي رماع حتى سوق مشرافة. من ذلك الطريق، هبط قبل عشرات السنين. وكان طريقًا مقفرًا، فقد كان الوقت شتاءً. وفي وصاب، لا تنزل الأمطار شتاءً، وتكسو الوحشة كلّ شيء. الوحشة والبرد والأدواء. وكلّ داءٍ يجيء من البرد.

قال منصور الأعرج «من الأفضل أن نتَّجه يمينًا، قلبي مطمئنّ لذلك الطريق»، وكان يشير ببندقيّته.

أراد العبور تُجاه وادي زبيد، ثم صعود الجبل من جهة الجنوب.

«أنا أثق بقلبك يا منصور»، قال نجيب، وخطر بباله أنّه بحاجة إلى مساندة ما، فذهب يغمغم «ليتني صلّيت معك في الجامع الكبير».

بدت لمنصور كلمات رفيقه خالية من الإيمان. حاد الرجلان شمالاً، وقطعا الوادي كتائهين قبل أن يعثرا على طريقٍ للسيل، وكانت تلك فكرة نجيب الأدرد «لنتّبع طريق السيل». وحتى يبلغا طريق السيل، كان عليهما أن يجتازا مزرعة موز محاطة بالشوك. فصاح بهما شابّ

ذو سنّين ناتئين وكان حافيًا. قال له نجيب «نبحث عن طريق السيل»، فأشار الرجل بعصاه في كلّ الاتّجاهات، وهو يقول «أنت في وادي زبيد، والسيل يأتي من كلّ الطرق».

تدخّل منصور الأعرج، قائلاً: «ولكنّنا نريد السيل القادم من الجبل».

فقال الرجل: «كلّ السيول تأتي من الجبل، ولا يوجد في اليمن الأعلى سوى الجبال».

اقترب منهما وكان يدور حولهما. التفت إليه نجيب الأدرد، وقال بلهجة رجل أُهينت كرامته:

«انظر، نحن نمشي منذ أيّام والشمس الآن عند المغيب وأمامنا طريق طويل، وآخر ما نفكِّر به هو أن نسرق موزًا من تهامة».

زمجر الشابّ:

«هاه، آخر ما تفكِّرون به هو سرقة موز تهامة؟ أهل الجبل يسرقون موز تهامة منذ مئات السنين».

أمسك منصور بيد رفيقه معتقدًا أنّ الحديث مع ذلك الشابّ لن يجدي نفعًا، فهو معتوه يظنّ أنّ الناس عاشوا قبل مئات السنين. اجتاز الرجلان مزرعة الموز. وفي الطريق، ضربهما الظلام من الخلف، ثم من كلّ الجهات.

«أمّا الآن، فعلينا أن نتبع طريق الضوء والفوانيس» قال نجيب الأدرد، وضحك الرجلان كأنّهما كسبا معركة. مع حلول وقت العشاء، سمعا أذانًا قادمًا من أكثر من قرية، ووجدا في طريقهما منازل كثيرة.

المنازل الممتدّة حتى تخوم الجبل كانت تشكِّل عددًا من القرى المتقاربة والصغيرة، أطلق عليها المسافرون «عزلة بلاد الرقود»، ثم نالت ذلك الاسم حتى الأبد. وفي القديم، قبل مئات السنين، خرج أكبر شيوخ العُزلة يتبوّل في الظلام، وكان وقت عشاء، فأخذه الجنّ إلى كهف بمحاذاة الجبل. وهنالك، نام شهرًا كاملاً. عندما استيقظ، دخل القرية خلسة، وكان قد تبوّل في ثيابه وسلح فيها عشرات المرّات. في طريقه، خلع ملابسه ودفنها في التراب، فقد كانت ثيابًا مميّزة ويمكن لأيّ شخص أن يخمّن اسم صاحبها. دخل قريته عاريًا، ولم يكن ذلك لائقًا بشيخ ولا بقرية تستند إلى الجبل. وفي أوّل جمعة، ذهب إلى المسجد وألقى الخطبة، وكانت الجمعة الأخيرة من شهر ذي القعدة، وقال للناس إنّه رقد ثلاثين يومًا في الكهف. بعد ليلة واحدة فقط، كانت كلّ القرية تنام منذ الخامسة مساء وحتى السادسة فجرًا، ولا يوقظها شيء، حتى السيول. وبقيت تلك عادتها. وقد لاحظ بعض المسافرين الشاردين أنّ الفروع البسيطة من السيول التي تمرّ بالخطأ عبر منحدرات عزلة بلاد الرقود لا تصبّ في الوادي، وأنّها تصدر هديرًا وحسب، لكنّها سرعان ما تنام ولا تبلغ وادي زبيد.

دخل الرجلان بلاد الرقود، ولم يوقظهما سوى شمس الضحى في اليوم التالي. كانت شمسًا هادئة من شموس أكتوبر المعروفة. حكّت القدم العرجاء لمنصور، ففتح عينيه ورأى جبالاً بالقرب منه. لملم كلّ منهما صرّته، وتأكّد منصور من بندقيّته فوجدها كما تركها الليلة الماضية. أمّا الأدرد، ففتح الصرّة ووجد أنّ النعلين اللذين سرقهما في زبيد قد سرقهما شخص آخر في بلاد الرقود. كان يلعن القرية بصوت خفيض. فقال له منصور «الحمد لله، إنّها مجرّد نعال.» فصرخ الأدرد:

«النعال كلّ شيء. النعال كلّ شيء».

أبصرا عديدًا من الناس، وكانت ملامحهم تشي بالبهجة، فهم ينامون كثيرًا. نصحهما رجلٌ بالجهة الأخرى، ناحية وادي رماع.. قال إنّهما إن استمرّا على ما هما عليه، فسيتوجَّب عليهما قبل أن يصعدا الجبل أن يسلكا حتى أقصى جنوب الوادي وأن يمرّا بقرية الوحش. ولم تكن تلك الكلمة ممّا يُدخل السكينة لقلب رجل قادم من أفريقيا، فسلكا طريقًا آخر ساقهما إلى رماع.

«لم أكن مطمئنًّا لفكرتك منذ البداية»، قال نجيب.

«ولكنّك قلت إنّك مطمئنّ لقلبي؟» أجاب منصور وقد توقّف فجأة عن المشي، وبدت عليه ملامح التبرّم من رفيقه والشكّ في سلوكه.

أشار نجيب بيده «هيّا»، متحاشيًا النظر إلى عينيّ منصور. وسمعه منصور وهو يقول «ظننت صلاتك في زبيد ستنفعنا».

كان رماع هو الطريق الذي قاد الرجلين إلى سوق مشرافة، عند سفح الجبل عصر ذلك اليوم. ومن مشرافة، حاد الرجلان يمينًا وصعدا الجبل، والتقيا عشرات المسافرين والمتسوّقين. كان بينهم مرضى محمولين على الأكتاف. وسمعا رجلاً يضرب حمارًا محمّلاً بالبضائع وينهر طفلاً: «نسينا الشمع فوق الجَمَل».

وهما يصعدان، وكانت الشمس تضيء من ناحية البحر، اقتربا من رجال يحملون مولِّدًا كهربائيًّا كبيرًا «ماطور». كانت تلك هي العُوّانة التي يتذكَّرها نجيب. سلّم الأعرج وتجاوز العُوّانة.

«لمن الماطور يا رجال؟» سأل نجيب الأدرد وهو يلتقط الأنفاس.

فردّ عليه رجلٌ من المقدِّمة: «للشيخ طٰه أبو علي، شيخ قرية الدكّة».

لم يسمع نجيب الأدرد أحدًا ينطق اسم قرية الدكّة منذ زمن. أمّا الآن، فقد وصل أخيرًا إلى قريته، ولا بدّ أنّ نجيبة تستحمّ في هذه الساعة، أو تجهّز الغداء، أو تضحك.

ـ ومن أين الرجال؟

ـ من تهامة، قال منصور.

ـ من أفريقيا، قال نجيب.

ـ من أفريقيا؟ تساءل رجل اسمه صُهَيْب السوائي.

ولكنّ الرجلين، منصور ونجيب، بقيا صامتين وتشاغلا بالتقاط الأنفاس.

توقَّف الرجال ووضعوا الماطور على الأرض، وأخرج بعضهم زمزميّته وشرب مقتصدًا. مدّد آخر رجليه، وأخرج رجل رابع حُقًّا صغيرًا من جيب كُوتِه وفتحه. قرّبه من أنفه، ثم نكته على كفِّه، فخرجت منه بودرة بنّيّة اللون. فتح فمه ثم دسَّها تحت لسانه.

«يومان ونحن نحمل الماطور على الأكتاف. أخاف أن تكون الشمس قد عطّلته». قال الرجل الذي وضع للتوّ بردقانًا تحت لسانه، وكانت مخارج الحروف مضطربة ومثيرة للضحك، فقد كان طرف لسانه ملتصقًا بطبقة أسنانه السفليّة:

«لا، لا تخف عليه من الشمس. أنا أخاف عليه من أنفاس الأخ جعبور».

دخلوا في نوبة ضحك، فأثاروا شهيّة نجيب الأدرد للحديث.

«في أفريقيا، يقولون اخلع حذاءك وضعه على رأسك، ثم ضع الماطور فوق حذائك، فالشعر يفسد الحديد»، قال الأدرد.

«لأنّ أفريقيا ليس فيها جبال ولا أحجار»، قال رجل.

«بلى، فيها».

«لا، ليس فيها. في أفريقيا، صحراء وكباش فقط».

«لا توجد كباش في أفريقيا».

«بلى توجد. أنت لست من أفريقيا. أنت تهامي»، ردّ عليه الرجل.

«لا أظنُّه من تهامة. الرجل يتحدَّث كوصابي»، قال صُهَيْب وهو يقارب حاجبيه كأنّه يحاول استخلاص سرّ عويص. ثم سرعان ما صرف نظره عن نجيب الأدرد، وحدَّج القدم العرجاء لمنصور، وكانت أصغر من الأخرى، وسأله:

«وأنت من أيّ البلاد؟»

«من تهامة، قال منصور وهو يتأمَّل قدمه التي لفتت الأبصار».

«ما اسمُك؟»

«منصور، منصور الأعرج».

«وأنا اسمي صُهَيْب، صُهَيْب السوائي. في الحقيقة، اسمي صُهَيْب مسدوس. وُلدتُ في إب بإصبع زائدة في قدمي. لكنّ الشيخ أبو علي غيّر اسمي. الشيخ غيّر أسماء كثيرين من سكّان القرية».

«حتى النبي فعل ذلك»، قال رجل من العوّانة.

«نعم، النبي فعل ذلك. غيّر اسم رجل يُقال له شهاب. الشيخ طٰه أبو علي غيّر حتى اسم زوجته. كان اسمها نجيبة، لكنّه غيّر الاسم إلى ذكرى. قال إنّه يخاف من الأقدار، وألّا تمنحه نجيبة أولادًا فيكون اسمًا على غير مسمّى. وهذا من شأنّه أن يعوِّد الناس على الكذب».

كان نجيب الأدرد يستمع لكلّ كلمة، وأفزعه ما سمعه عن نجيبة. ربّما كانت امرأة أخرى. فعندما ترك القرية، قبل ربع قرن، كانت نجيبة في السادسة من عمرها، وكان سنّ أبو علي يداني الأربعين. داهمته جملة سمعها من عمّه في أفريقيا عن الشيخ طٰه أبو علي «خلق الله شيخنا على شكل أير ثم نبت له جسد مع الأيّام».

ارتجفت أصابعه لمجرّد أن تخيّل ابنة عمّه، وهي تزفّ إلى رجل خُلق على شكل أير. وذهب يتخيّل حجم أير ذلك الشيخ مقسومًا على الحجم الكلّي للجسد، وكسته الرهبة والغضب. ونجيب قادم من أفريقيا، ولا شيء يذهله أو يغويه مثل الفانتازيا والخيال.

ربّما كان هناك الكثير من نجيبة في القرية. ما الذي سيدفع الشيخ للزواج من ابنة عمّي؟ قال نجيب لنفسه. نحنُ أقلّ شأنًا منه، وهو واسع النفوذ والعلاقات في الوصابين، وبوسعه الزواج من ابنة أيّ شيخ!

مهجوسًا بأسطورة الملكة الوصابيّة التي غيّرت أسماء القرى، بدّل الشيخ طٰه أبو علي اسم نجيبة إلى ذكرى، قائلاً إنّه كان يمتثل لتعاليم النبيّ. في تلك الساعات، في الجبل، شعر نجيب الأدرد بكلمتين تضربانه في عنقه: «الشيخ والنبي». وتمنّى في أعماقه لو غابتا عن طريقه ما بقي له من العُمر. وغمغم «الحمد لله أنّي لم أصلّ في زبيد». وهزّ رأسه، كأنّه يحاول إطلاق مارد من قاع جمجمته.

نظر صُهَيْب إلى قدم منصور الأعرج مرّة أخرى، وسأله:

ـ «لماذا أنت حافٍ؟»

ـ «تمزّقت نعلاي في رماع»

ـ «آهِ من رماع» أنَّ الرجل.

ـ «احمد ربّك يا رجل. هذه فِديتك. كان أجدادنا يقولون إذا سقط نعلاك في رماع، فقد حفظ الله رأسك»، علّق رجلٌ من العوّانة. بينما كان صُهَيْب يتأمّل ساعة دائريّة صغيرة معلّقة إلى رقبته بخيط سميك من القماش.

نهض الرجال واستأنفوا الرحلة في ذلك الطريق الغنيّ بروث الحمير والأبقار وبالخراء البشري اليابس على الجوانب. على بُعْد مئات الأمتار، صرخ رجل من العوّانة، وكانوا أربعة بخلاف صُهَيْب السوائي. مدّدوا الرجل الذي صرَخ على الأرض وسقوه ماء ثم رشّوه على وجهه ورأسه. كانت قدماه متورِّمتين، ولا نعرف له اسمًا، وقال صُهَيْب إنّها ضربة شمس. أُصيب الرجل الذي لا نعرف له اسمًا بضربة شمس، وضاق نعلاه على قدميه فسلّمهما صُهَيْب لمنصور. دخل منصور مع العوّانة وحمل الركن الأيسر من الماطور، حتى يتسنّى له استخدام قدمه اليمنى السليمة، وبدا مثيرًا للإعجاب. ولوقت قصير فقط، نسي رجال العوّانة عرجة منصور، فامتلأت عيناه بالامتنان وقدمه اليمنى بالألم.

أصبح منصور الأعرج منذ تلك الساعةِ واحدًا من رجال الشيخ طٰه أبو علي.

١٩

في غرفة منفصلة عن دار الشيخ أبو علي، قضى منصور ليلته الأولى محاولاً أن ينام. وفي الصباح، ضرب صُهَيْب على صدره ضربات خفيفة، وذهبا للصلاة في مسجد الشيخ. يقع المسجد إلى الجهة الشماليّة من الدار.

مات والد الشيخ طٰه أبو علي شابًّا ودُفن تحت المسجد. كان عُمر طٰه أحدى عشر عامًا عندما أصيب والده بتشنُّجات في كلّ جسده. وفي الصباح، آلت الأمور كلّها إلى نجله. وفي رجب، ١٣٩٢ هـ، عاد رجلٌ من الحجاز وذهب إلى الشيخ طٰه ونصحه أمام حاشيته، وكان خارجًا من صلاة الجمعة:

«لا تجوز الصلاة في مسجد على قبر».

كان الشيخ طٰه رجلاً متديّنًا، ولكن تلك الإهانة كلّفت الرجل القادم من الحجاز الشيء الكثير. تهامس عسكر الشيخ في الأيّام التالية عن الوجهة التي نزح إليها الرجل القادم من الحجاز، وأغلب الظنّ أنّه

نزح إلى شمال وصاب العالي. كانت موجة صقيع قد ضربت الوصابين بضراوة في ذلك الشهر، وكان يوافق نوفمبر ١٩٧٢ م.

في الصباح ذاك، قدّم رجلٌ لمنصور الأعرج فنجانًا من القهوة، وسأله إن كان الشيخ قد رآه، فردّ منصور بحركة من رأسه. تبادل منصور وصُهَيْب بعض الكلمات من وقت لآخر في نهار ذلك اليوم، لكنَّ صُهَيْبًا كان يختفي ثم يعود. وقبل أذان الظهر، سمع الناس لأوّل مرّة صوتًا عظيمًا صادرًا من صندوق من الحديد. ولم ينقض النهار حتى كان المهندسان القادمان من صنعاء عبر ذمار قد نجحا في إنارة دار الشيخ. زغردت عشرات النساء في دار الشيخ، وهمس حارسٌ لآخر إنّ زغردة صباح ابنة الشيخ طٰه كانت مميّزة، فلكزه الآخر «لا تكُن أهبل. لا توجد زغرودة مميّزة»، فقال «بلى». وذهب يسترقُّ النظر إلى عدد كبير من الشبابيك الحجريّة على الجهتين الشماليّة والشرقيّة للدار، ولم يرَ شيئًا.

كان يومًا عصيبًا على صُهَيْب السوائي، فهو الرجل المكلّف من قبل الشيخ باستلام شؤون الماطور والتعامل معه في الأيّام القادمة. وقد سمع نصائح كثيرة من الرجُلين الغريبين، وطلبا منه تشغيل الآلة أكثر من مرّة، ونجح أخيرًا. ركله أحد رجال الشيخ على مؤخِّرته، كتعبير عن إعجابه الشديد، فشعر صُهَيْب بالفخر. بقيت يدا صُهَيْب ملوَّنتين بالأسود لما يقرُب من أسبوع، ولم يسبق ليدين في وصاب أن تلوَّنتا بتلك الصبغة، وكان ذلك يشعره بالزّهو. رفض صُهَيْب كلّ النصائح، ولم يغسل يديه «حتى لو تسمّمتُ فليست مشكلة»، ذهب يردّ عليهم كلّهم.

صار على القرية أن تعلم جيّدًا أيّ رجلٍ هو صُهَيْب السوائي، وأن تتذكَّر أنّه من الآن وصاعدًا الرجل الوحيد الذي يجلب الضوء،

ولا يجلبه سوى للشيخ. بعد انقضاء أسبوع، غسل صُهَيْب يديه.. فقد شهدت له القرية.

أمّا منصور الأعرج، فظلّ صامتًا طيلة ذلك النهار. انشغل الناس بالماطور، ولم يقترب أحدٌ من منصور بشكل حقيقي سوى امرأة وقفت أمام الباب الرئيسي لدار الشيخ، وكان الرجال في فناء المسجد يشاهدون الصندوق الكبير. سألته عن رجلٍ اسمه حسن العِجْل، فقال منصور إنّه لا يعرفه، فهو غريب على القرية. تأمّلته المرأة بشفقة، وسألته إن كان الشيخ «قد بندَقك» أي حمّلك بندقيّة حارس، فمنحها منصور ابتسامة بلهاء غمرتها بالسعادة.

كان بيت الشيخ كبيرًا، وكان يعدّ غداء مفتوحًا للسابلة. ولطالما نزل في داره دخلاء وهاربون. ومنذ زمن، لم يعد دار الشيخ طٰه أبو علي يندهش للأغراب، فهو يرى الكثير منهم.

حلّ الليل، وشعر منصور بالغربة الجامحة، وحنّ لرفيقه نجيب. ومع اشتداد الحلكة والبرْد، تذكَّر منصور ليلة غفا فيها أمام الباب الغربي لمدينة تعز، وكان طفلاً.

يا له من طريق طويل! قال لنفسه، وبكى لأوّل مرّة منذ زمن.

«أين أريد؟» حدّث نفسه، وفرك قدمه العرجاء.

«إلى أين تقودينني؟» سأل قدمه، ثم نظر من نافذة ضيّقة في الغرفة التي يقتسمها مع رجال آخرين، فلم يرَ سوى الليل.

وعندما خرج الشيخ طٰه من صلاة الجمعة، بعد أربعة أيّام من وصول منصور، لمح رجلاً أعرج. أشار إلى عَرْجة منصور متجاهلاً حقيقة أنّ عليها رجلاً؛ فقال السوائي، وكان يمشي إلى جوار الشيخ على الدوام:

«هذا منصور الأعرج، من تهامة. صار واحدًا من رجالنا».

تساءل الشيخ، وهو يتخطّى العتبة التي تؤدِّي إلى ساحة المسجد الأماميّة: «الأعرج؟»

ولم يجد جوابًا.

وخلف المسجد، على بعد أكثر من مائتي خطوة، نظر حمار مريض تجاه الجبال الغربيّة، وحاول أن ينهق فلم يخرج من فمه سوى صوت واهِن.

وفي وصاب العالي، تذكّر رجل أرضَ الحجاز وغمره الحنين، وسالت الدموع على خدَّيه.

مرّت أيّام ولا يعلم منصور ما الذي حلّ برفيقه. فقد ودّعه وسط القرية، بينما وقف الناس لمشاهدة رجالٍ يحملون صندوقًا عظيمًا. قال إنّه سيذهب إلى منزل والديه، وسيأتي قبل الليل لاصطحاب منصور. همس السوائي في أذن منصور بحذر: «رفيقك غادر القرية».

«ماذا تقول، ماذا يعني هذا؟ وأين ذهب؟» سأل منصور مذعورًا.

لكنّ الرجل هدّأ روعه قائلاً إنّ الزوجة الجديدة للشيخ طٰه هي ابنة عمّ نجيب، ومن الأجدر به أن يكون فخورًا، إلّا إن كانت الغربة قد أنسته من هو الشيخ طٰه أبو علي!

«هل أسرّ إليك بأمرٍ ما؟» ألقى صُهَيْبٌ سؤاله وهو يتلفّت مثل كلب غريب.

«نعم. لا. لا أدري. عندما كنّا أمام البحر، قال إنّه يريد الزواج من ابنة عمّه. هكذا قال لي».

«لهذا السبب إذن، فقد غادر القرية. هذا أمر خطير. هل تعلم أنّه

نزل الآن في مخلاف بني مسلم. عيوننا راقبته».

«لا أعرف شيئًا عن هذه البلاد ولا عن مخلاف بني مُسلم. جئت مع نجيب، وكنتُ أريد أن نقتسم داره معًا، وأن يصير لي دار مع الأيّام. دار وقرية».

«ستعلم مع الأيّام طبيعة الرجال الذي يحتشدون في مخلاف بني مُسلِم».

محاولاً إشراك منصور في تفاصيل حديثه في تلك الليلة، قال صُهَيْب السوائي: «لاحظتُ أنّك تحمل بندقيّة. هذا حسن. ستتعلّم أشياء كثيرة. الأمور تسوء في وصاب، وهناك شيوعيُّون يتسلّلون إلى وصاب من المناطق البعيدة والقريبة. يريدون السيطرة على وصاب وقتل كلّ شيوخها. لقد بدأوا بقتل الشيوخ، وترويع الآمنين، وهدم الآبار».

«شيوعيُّون؟» تساءل منصور والحيرة تملأ فمه، فقد سمع تلك الكلمة أكثر من مرّة بالقرب من البحر، وكان نجيب يلفظها مغموسة بالكراهية والهلع.

«لكن نجيب قال إنّ الشيوعيين قتلوا عمّه في أفريقيا، وأنّه سيقاتلهم عندما يجد الفرصة.» أضاف منصور إلى تساؤله.

«هممم. إذن فهي روح الانتقام في قلب الرجل. كان يصرخ، ويتوعّد، ويقول إنّه سينتقم وسيمزِّق جسد الشيخ. سمعه الجيران يقول ذلك بعد عودته بساعات».

«نجيب رجل أدرد، طيِّب القلب، لا يقتل أحدًا. الرجل الأدرد لا يقتل. ربّما كان حزينًا، لأنّ ابنة عمّه أصبحت زوجة لرجل آخر».

«رجل آخر؟ حذار من أن تقول عن الشيخ أبو علي إنّه رجلٌ آخر. الشيخ سيّد الرجال في هذه المنطقة، وهو الذي يحمي وصاب كلّها من الشيوعيين. طٰه أبو علي هو الذي هزم الملَكيّين وحرس الجمهوريّة وساند الجيش المصري في كلّ هذه الجبال».

اقترب من أذن منصور ليفشي له بسرّ جسيم:

«هل تعلم أنَّ الجيش المصري أراد مكافأة الشيخ أبو علي، واقترحوا عليه أن تغنّي أمّ كلثوم واحدة من قصائده. أبو علي يكتب الأشعار أيضًا، أنت لا تعلم هذا. لكنّه رجل تقيّ على كلّ حال. اعتذر للجيش المصري، وقال إنّه لا يريد أن يختم جهاده بأغنية. وقال من ترَك شيئًا لله أبدله الله خيرًا منه».

«أعتذر عن كلمتي، لم أقصد الإهانة. على كلّ حال، أنتم لستم بحاجة إليّ. يمكنني أن أسافر غدًا. سأعود إلى وادي المُلك أو حذران. سأعود إلى حذران. أو سأبحث عن نجيب. سأمشي. منذ أكثر من عشرين عامًا وأنا أمشي. لا أزال قادرًا على المشي».

وكما لو كان يستدرّ عطف الرجل الذي أمامه، ذهب يتداعى بصوت خفيض: «ماتت أمّي حزينة على ابنها الأعرج، فقضى عمره مشيًا على الأقدام. ليتها تراني الآن وقد رسمتُ بقدمي العرجاء دائرة حول جبال اليمن».

«العرَج ليس عيبًا كاملاً»، قاطعه السوائي.

«.. ولم يعد بمقدورك أن تمشي كما تريد. لم يعد الطريق آمنًا. الآن وقد عشت معنا لأيّام، فأنت مرصود. في قرية الدكّة، تنتهي حدود دائرتك. إذا ذهبت إلى الجهة التي فيها نجيب سيقولون إنّك جاسوس، وسيقتلونك. الأسبوع الفائت، ألقوا بشيخ من على جبل.

وقبل أيّام، دحرجوا أحجارًا ضخمة على قرية صغيرة».

بقي منصور صامتًا ومفزوعًا، وغارت عيناه. ففي قرية الحاجّ كان هناك شيخ أيضًا، وكان الحديث يجري دائمًا عن الزرع والغلّة والنساء والأولياء الصالحين. قطع صُهَيْب شروده ودنا من أذن الأعرج:

«يقودهم رجل من أخدام تهامة اسمه أحمد الوجرة. لديهم جيش من الأخدام الناقمين والجياع يستخدمونهم في إرهاب الرعيّة وقتل الشيوخ. لا أريدك أن تفزَع أو ترتجف. المواجهة قادمة، وفي هذه الجبال نعيش منذ مئات السنين: يا قاتل، يا مقتول».

وجعل منصور يغمغم ببلاهة أغضبت الرجل الآخر:

«منذ مئات السنين، منذ مئات السنين».

وتشاغل بإخراج قملة من رأسه، وسرعان ما وضعها أمام عينيّ صُهَيْب، فقال الأخير:

«عجيب، لا يوجد قمل في قرية الدكّة. هذه من تهامة».

فشعر منصور بالاشمئزاز، وقال للرجل:

«تهامة تزرع الموز والتمر، أنت لا تعرف حتى أين هي تهامة».

وسكن صُهَيْب السوائي فجأة، مسلّمًا بما قاله الضيف الجديد. فهو لم يرَ تهامة، ولم يزرها قطّ. وعندما أرسله الشيخ مع الرجال لإحضار الماطور من الميناء، انتظر صُهَيْب السوائي في سوق مشرافة، أسفل الجبل، يومًا وليلة، حتى عاد الرجال والماطور على أكتفاهم تارة، وفوق رؤوسهم تارة.

مرّت الأسابيع سراعًا.

وجاءت الأخبار من وصاب العالي عن وصول حرّارة الغشمي،

وكانت مثل رياح الحصاد. فقد تبرّع الرئيس الغشمي بتراكتور كبير ليشقّ طريقًا من ذمار إلى وصاب، فمنحه الأهالي اسم «حرّارة»، حرارة الغشمي. دشّنت حرّارة الغشمي العمل من الجهة القريبة من الماركسيّين، وحمَلت اسم الرئيس. قال له صُهَيْب في مساء القرية الصافي وهو يحدِّثه عن حرّارة الغشمي:

«ليتني ألتقي الرئيس الغشمي، سأقول له أشياء كثيرة».

فقال منصور، وقد سحرته قصّة أخرى:

«أتمنّى لو أرى حرّارة الغشمي».

هنا قفز حارس آخر، كان يحاول النوم منذ ساعة، وقال مبتهجًا ومغرورًا:

«رأيتها يوم الثلاثاء الماضي، يا إلٰهي، تشبه أمّ الصبيان. أصابتني القشعريرة وكدتُ أتبوّل على نفسي. زَيْد المصلّي غطّى قضيبه وخصيته بالعمامة وهرب. قال إنّ شكلها يشبه قرّاصة الخِصي التي تخرج بعد المطر».

لكنّ صُهَيْب نهره:

«ارقُد يا مضريط».

فرقد المضريط.

كان الشيخ طٰه يسمح لرجاله من العسكر، وبعض شخصيّات القرية، بالمقيل معه في دكّة منزله من وقت لآخر. بينما يصطفّ الرجال المحبوسون على ذمّة قضايا جنائيّة في الخارج والقيود في أقدامهم. ومن الداخل يصلهم القات ولا يسمعون سوى الضحكات العالية، فيضحكون معها. وعندما يصل الرجال جميعًا إلى الساعة

السليمانيّة، ويفقدون الرغبة في الكلام، يشغّل الشيخ طٰه الراديو، ويختار إذاعة القاهرة، ثم لندن ثم صنعاء. وقد دُرّب على هذه العادة، بالترتيب نفسه، منذ حروب الملكيّين.

في أحد الأيّام، حضر منصور الأعرج مقيل الشيخ أبو علي. ذهب الشيخ يسرد تاريخ الراديو في وصاب والجبل بشكل عام. قال إنّه يتذكّر الفتوى التي أصدرها السيّد علي المروني محذّرًا فيها من الاستماع إلى الراديو والجلوس إلى ذلك المنكر. لكنّ المروني، كما يروي الشيخ، عاد بعد ثورة ١٩٦٢، وأصدر فتوى بوجوب الاستماع إلى الراديو وإذاعة مكّة المكرَّمة على وجه التحديد «لمعرفة أخبار مولانا الإمام». وذهب ضيوف الشيخ، وكان منهم شيخ قرية صغيرة وابن شيخ قادم من وصاب العالي، يسردون قصصًا عن الراديو ملأت المكان بالبهجة. قال أحدهم إنّه أحضر الراديو في العام ١٣٨٤ هـ من الحجاز، وعندما وصل إلى القرية، رفض الراديو الكلام. أرسله مع ولديه إلى قمّة الجبل، ورجاه بكلّ الوسائل، لكنّه لم يتكلّم. قرأوا عليه آية الكرسي والمعوّذتين، ودهنوه بقليل من السمن البلدي وفركوا على ثقوبه بعض الشمع، وكانوا قد جهَّزوا كلّ ذلك. ولكنّه لم يتحدّث. وعندما عادوا إلى المنزل مع الراديو «أبو أربع بوصات» غضب الرجل واهتاج، ثم أخذه وصعد إلى السطح وتبوّل عليه. «لم يُشف غليلي إلّا بعد أن قذفت به إلى الوادي. ولمّا سمعتْ الكلاب صوت ارتطامه نبحت وركضت إليه، فقلت لنفسي: لا حول ولا قوّة إلّا بالله، صار من نصيب الكلاب، إنَّ الله يرزق من يشاء». تحدّث الرجل، وضحك الشيخ، ثم سعل بقوّة وجحظت عيناه، وطلب منه الحاضرون أن يتوقّف عن الكلام. «لا بأس عليك، نتفة قات دخلت إلى حنجرتك». فهزّ رأسه مصدّقًا، وتوقّف عن الكلام وتوقّف الآخرون، ثم استمعوا

إلى الراديو صامتين. كان ذلك بعد ظهر الرابع والعشرين من يونيو ١٩٧٨ م.

ولم تمض سوى بضع دقائق حتى قالت إذاعة القاهرة إنّ الرئيس اليمني الغشمي قد قُتل نهار ذلك اليوم بانفجار رسالة جاءته من الجنوب، وإنّ جامعة الدول العربيّة تدعو إلى قمّة عاجلة لتدارس ما حدَث، والتوقُّعات تذهب إلى عزل الماركسيّين في الجنوب، وتجميد عضويّة اليمن الجنوبي في جامعة الدول العربيّة.

كان خبرًا مزلزلاً ورهيبًا.

«كنتُ أعلم أنّ أمرًا سيّئًا سيحدث.. لقد ضحكنا كثيرًا يا رجال، وما كان ينبغي أن نضحك بتلك الطريقة»، علّق رجل كبير السنّ من أهل القرية ذو ذقن حمراء.

وقال الشيخ طٰه أبو علي، وكانت ذقنه أيضًا حمراء أغلب أشهر السنة:

«لنستعدّ يا رجال. حياتنا في خطر، وهؤلاء لن يستثنوا أحدًا. لن يقتلوا الرؤساء والشيوخ فقط. سيأخذون حتى نساءكم».

وخطر نجيب الأدرد على بال منصور.

تُرى ما الذي يفعله الآن في بني مسلِم؟ وهل يدحرج الحجارة الكبيرة من أعلى الجبال على القُرى، أم يخطّط لقتل المزيد من الرؤساء؟

٢٠

حلّ الصقيع على الجبال وأتلف كلّ شيء في طريقه. وقبل منتصف الليل، خرج رجلٌ يبحث عن قات ولم يجد سوى طبقات من الفطر الأزرق على كلّ ورقة. أراد أن يلعن الشتاء، وما إن فتح فمه حتى سال الدم من شقّ طولي يقسِم شفته السفلى. وعندما سأله رفاقه «هاه، بشّر، قات؟»، قال «سِيدي حسن»، وأشار إلى ساعده الأيمن. وفي شمال اليمن، كان المتديِّنون الزيود يعتقدون أنّ حسن بن علي بن أبي طالب فرّط في الخلافة بعد مقتل أبيه، وسلّم كلّ شيء إلى الأعداء، بخلاف شقيقه الحُسين الذي سافر من المدينة إلى العراق وخاض معركة. وما إن يسمع المرء جملة «سِيدي حسن» حتى تدركه الخيبة، ويعرف أنّ الحظّ السعيد أبعد ما يكون.

«كنتُ متوقِّعًا هذه النتيجة يا نجيب. قلتُ لهم قبل دقائق إنّك ستعود بخفّي حُنين. سلبت نجيبة لبّك يا رجل. لو أرسلنا السّليك لكسبنا الرهان». ثم التفت الرجل تجاه آخر يجلس في ركن الديوان منهمكًا في قراءة منشور ما:

«ذاك هو سِيدي حُسين».

ولم يرفع السّليك بصره عن الورقة.

صفّق رجل متوسّط البنية، أسود اللون كأنّه نصف زنجيّ، فأعاروه كلّهم الانتباه المطلوب. مطّ أحمد الوجرة شفتيه، ثم قال وهو ينظر إلى كومة أوراق أمامه:

«أوّلاً، لا سِيدي حسن ولا سِيدي حُسين. علينا أن ندفن هذه الخرافات في رمال تهامة، أو نلقي بها في طريق السيل».

صمت الرجل ووزَّع بصره على الحاضرين، وكانوا زهاء ١٣ رجلاً.

«ولنتأكّد أوّلاً أنّ السيل يجري، وأنّ طريقه ليس جافًّا»، أضاف أحمد الوجرة.

تلافت الحاضرون مبتسمين، فلطالما سحرهم ذلك الخادم الذي لا يعرفون عن جدّه الأوّل شيئًا. كان قد التحق بالماركسيّة منذ مطلع السبعينيّات. «لقد خاطبت أعماقي وتشرّدي»، قال دائمًا. وعندما قرأ ما يكفي من الكتب، دوّن في يوميّاته، التي ستختفي إلى الأبد:

«لقد أعادتني الماركسيّة إلى هذا العالم، ولم أكن قبلاً سوى خائف يمشي على أطراف المجتمع».

انتقل أحمد الوجرة بسرعة إلى ما كان يسمّيه «الجانب العملي»، مستعرضًا أمام رفاقه ما تمّ إنجازه على الأرض، وما يجري في صنعاء، وآخر اتّصالاته بالقادة الماركسيين في الجنوب اليمني.

«لقد ارتكبنا أخطاء، علينا أن نعترف. والنظام الرجعي والمحيط الإقليمي يستغلّون أخطاءنا ويضاعفونها. أسوأ الكوابيس التي ستواجهنا

هي أن نصبح حركة سيِّئة السمعة. سيتطلّب منّا الأمر عشرات السنين، عندئذ، لتسويق حركة سيِّئة السمعة».

ابتلع الوجرة ريقه، وكانت شفتاه ترتجفان من البرد، ولم يكن في حوزة المجموعة سوى القليل من أعواد القات. كانوا يقطنون بيتًا لأحد الرفاق، مكوَّنًا من طابقين. ومثل مخلاف بني مسلم، كان ذلك البيت يشرف على طريق طويل للسيل، وكانت روائح الرجال سيِّئة، وكانوا دائمًا ما يجدون أشياءً يأكلونها. وكان البيت الذي يجتمعون فيه هو المنزل الوحيد الذي لا ترقد أمامه الكلاب.

«تعرفون أنّ ما حدث في الأسابيع الماضية كان جيِّدًا بالنسبة للجبهة، جبهتنا. الآن نستطيع أن نهاجم إعلاميًّا وميدانيًّا، وبصدور شجاعة»، أضاف.. ثم صمَتَ، وقام بتمرير أوراق إلى الرجل الذي على يساره، وذهبت الأوراق تدور.

وفي قرية النادرة، في محافظة إب القريبة، كان شابّ قد التحق بالجبهة القوميّة الماركسيّة. فرّ الشابّ من القرية تجاه عدن، فجاء رجال يتبعون النظام الحاكم ولم يجدوا له أثرًا، ووجدوا زوجته وطفلته. عصر ذلك اليوم، الرابع من نوفمبر ١٩٧٨، كانت أربع جثث متفحِّمة تُرى من مكان بعيد، وكان لا يزال قليل من الدخان يصعد من لحمها الأسوَد. أُحرِقت قبول الورد، وابنتها. وبجوارهما كانت جثّة امرأة حامل اسمها صالحة تصدر هسيسًا بعد أن تفحّم جنينها. على بعد أمتار من جثّة المرأة الحامل، شوهدت جثّة محترقة لطفل، لم يتبقَّ منه سوى عظام سوداء ولا يبدو أنّ جسده الصغير كان قادرًا على أن يصدر أيّ رائحة. حتى الدخان الذي تصاعد من جسد الطفل المحترق كان بطيئًا وخفيفًا، كأنّه ينبع من بركان نائم.

حدث كلّ ذلك أمام أهل القرية، وأولئك اكتفوا بوضع الأكفّ على الأفواه، وبعضهم فرّ لمجرّد أن بدأ رجل ملثّم بصبّ البنزين بين كتفيّ السيّدة الحامل.

يبدو أنّ أحمد الوجرة في ذلك الاجتماع كان يشير إلى تلك الحادثة، حتى إنّ أحدًا من الحاضرين لم يسأله عمّا يقصده.

وقبل فجر تلك الليلة، كان نجيب الأدرد بمعيّة ثلاثة أشخاص مزوّدين بالكلاشنكوف قد وصلوا إلى قرية الدكّة وتجوّلوا بين المنازل. صعد نجيب إلى منزل جدّه الذي يعرفه جيّدًا، وجلب خبزًا ووضع عليه قطعة من السمن البلدي المجمّد، ثم واصل الرجال طريقهم ودخلوا قرية أخرى. وفي الأيّام التالية، قام نجيب بإغارات أخرى، وداهم بعض المنازل القريبة من بيت الشيخ، وعاين منزل طٰه أبو علي جيّدًا، واحتفظت ذاكرته بتفاصيل منزلٍ يطلّ بشكل أفضل على دار الشيخ. ومع مرور الأيّام، كانت القرية كلّها تتحدّث عن نجيب الأدرد، وتلوك الكلمات البذيئة ضدّ ابنة عمّه التي ستجلب لهم الحظّ التعيس.

أمّا نجيب الأدرد، فقد أصبح مسؤولاً أمام الوجرة عن قريتين إحداهما قرية الدكّة.

صار علي عبد الله صالح رئيسًا للجمهوريّة، لكنّ الحرّارة التي تحاول شقّ طريق إلى وصاب بقيت تحمِلُ اسم سلفه، ولم تفلح الجهود في تغيير الاسم. وكانت الأخبار تتدفّق من كلّ الإذاعات عن صنعاء المتوتّرة، والعاصمة التي غيّرت ثلاثة رؤساء خلال عام واحد. ولم يمض على الرئيس الجديد سوى ثلاثة أشهُر حتى حاصرته قطاعات من الجيش بقيادة عسكريين قوميِّين، لكنّه أفلت من الحصار.

ذهب أحمد الوجرة، في الأسبوع الأخير من ديسمبر من ذلك

العام، يضرب الجدار برأسه ويصرخ «كيف غفلتم عن مراقبتهم حتى استعادوا كلّ تلك المناطق في لمح البصر»؛ ولكن نجيب الأدرد تركه وغادر إلى السطح، وفتح عينيه باتّجاه الضفّة الأخرى من السائلة، حيث مخلاف بني شعيب. نسي الرجل القادم من أفريقيا برد تلك الليلة، ولم يخطر بباله قطّ أنّ رفيقه منصور الأعرج على الضفّة الأخرى من السائلة، يعدّ رصاصاته المتبقّية ويبحث عن متراس آمن. رفض منصور التخلّي عن بندقيّته ذات الماسورة الطويلة، قائلاً إنّه لا يثق سوى بالسلاح القديم وبالماسورة التي حرسته لسنوات.

سمع نجيب الأدرد صوت السّليك، ذلك الشخص الصارم والهادئ والسريع، وهو يوقف هدير الوجرة:

«يكفي يا أحمد، قلتُ لك يكفي. هُزمنا في أكثر من مكان وليس في وصاب وحسب، انظر ما الذي حدث في إب! لكنّها مجرّد جولة. لنفكّر كما يجب وبهدوء، وإلّا خسرنا هذا البيت أيضًا».

تجوّل عشرات الرجال بين المنازل في مخلاف بني شُعيب، بينما لزمت النساء والأطفال الصمت التامّ. وبدا أنّ تلك الليلة جلبت فزعًا عظيمًا أكثر ممّا نزل بها من البرْد. وما إن انتصف الليل حتى انفجرت مواسير البنادق والرشّاشات من الجهة التي يوجد فيها منصور الأعرج. وذهب الأخير يوجّه بندقيّته تجاه الماركسيين الذين نشروا الفزع في قرية الدكّة قبل أيّام، وقد عاين الأمر بنفسه، فمنصور لا يصدّق كلّ ما يسمعه. كان يطلق رصاصة وتحدث بندقيّته دويًّا رهيبًا، ثم يعود ليشحن ماسورتها برصاصة أخرى عن طريق مزلاج يوجد بالقرب من منتصفها.

وسرعان ما جاء الردّ من الجهة الأخرى. كانت ليلة تأخّر قمرها كثيرًا، وعندما ظهر قبل الفجر لم يرَه أحد. فقد كانت الجبال مطمورة

بغمام الشتاء منذ أيّام. استمرّ الرصاص يخترق الغمام من الجهتين حتى شعر الطرفان بالملل. وتوقَّف الرصاص الخارج من مخلاف بني شعيب أوّلاً، ثم الرصاص القادم من مخلاف بني مسلم.

وجوار بيت حجري قديم، في الجزء الأسفل من مخلاف بني شعيب، راح متسوّل يتقلّب في نومه، ويقرأ آية الكرسي.

وكان هناك على الجهتين من يئنّ بصوت خفيض. وصاح رجل يقف في مخلاف بني مسلم، حيث الماركسيين، في الظلام:

«باكر يا بن عبد الغني سأدخل إلى بيتك وأركب مرتك». واستطاع صوته أن يصل إلى الضفَّة الأخرى رغم الغمام.

ولم تمض سوى دقيقتين أو أقلّ حتى كان رجل يقف على سقف منزل في مخلاف بني شعيب، حيث الإسلاميين، ويصيح بصوت جهوريّ عظيم:

«أنا أعرفك يا بن حمّود وأعرف كم بطيزك شعر».

قبل طلوع الشمس، حمل الرجال جثّتين من مخلاف بني شُعيب، ودفنوهما في مقبرة بعيدة. لا يعلم أحد ما الذي حدث على الضفّة الأخرى من طريق السيل. وطيلة نهار اليوم التالي، وقد انقشع الغمام قليلاً، لم ترَ العيون أحدًا من رجال الجبهة الماركسيّة.

وقُتل الرجل الذي عاد قبل سنين من الحجاز. قتِل بالفعل.

وعندما فتحت ذكرى عينيها صباح ذلك اليوم، أحسّت بخَدَر يضرب ساقيها، ووجع في أسفل ظهرها، وكانت سعيدة ومشوّشة بعض الشيء. قلّبت عينيها في غرفتها الواسعة، فرأت ذرّات من الغبار الناعم تدور في أشعّة الشمس. تحسّست الجانب الأيسر من عنقها بأطراف

أناملها، ويبدو أنّها مرّت على ما يشبه أثرًا لعضّة بشر. وعَلِقت بخنصرها شعرة قصيرة حمراء، فأغمضت عينيها وملأت رئتها بالهواء. وخلال ساعات ذلك اليوم، ولمدّة أيّام، لم يزر الشيخ طٰه أبو علي غرفتها مرّة أخرى.

كانت ليلة عصيبة على خطّ النار، وكان الشيخ أبو علي يعرف جيّدًا أنها ستكون كذلك بالنسبة لرجاله. ولكي ينجو من تأنيب ضميره، فقد قرّر مساندة رجاله في الخفاء والقيام بكلّ ما من شأنّه أن يسبّب ألمًا للماركسيّين المتواجدين في مخلاف بني مسلم، وصعد إلى ذكرى. في تلك الليلة، بدت له ذكرى مجرّد جبهة خلفيّة لنجيب الأدرد، وربّما لمخلاف بني مُسْلِم كلّها. في الحقيقة، يمكن القول إنّ الرجل لم يرَ في ذكرى تلك الليلة سوى صورة نجيب الأدرد، ولذلك قرّر أن يأتيها من الخلف لأوّل مرّة، وكانت تحاول الصراخ، ولكنّه خنقها.

وحدَّث الشيخ أبو علي نفسه وهو يغلق الباب على زوجته ذكرى، أو نجيبة. وقال إنّه نال من الماركسيِّين، وإنّ رجاله على الجبهة سيكملون ما تبقّى من المهمّة. وذهب يخزّن القات ويواصل السهر مع كتاب ذي غلاف سميك. لو رأيته، وأنت تقف في باب غرفة الشيخ، ستظنّه كتاب البداية والنهاية لابن كثير. ولا ندري إن كان كذلك بالفعل!

٢١

استمرّت المعارك في الجبال، وسمع الناس كثيرًا هذين الاسمين: الجبهة القوميّة، والجبهة الإسلاميّة.

وكان منصور مقاتلاً إلى صفّ الإسلاميّين. أمّا نجيب، فأحبَّه أحمد الوجرة، وكانت ملامح الرجلين تتشابه كثيرًا، وذهب يرسله في مهمّات إلى قرى بعيدة. . وكان نجيب دائمًا يمرّ بالقرب من قرية الدكّة، أو من خلالها. وفي مرّة، ألقى قنبلة يدويّة فانفجرت بالقرب من ماطور الشيخ طٰه، ولم تكن ضمن مهامّه تلك الليلة أن يقترب من قرية الدكّة. إلّا أنّ نجيبة أسقمت قلب الرجل، وكانت تجذبه كمغناطيس وسرعان ما يجد نفسه على مرمى حجر من قريتها. أمّا نجيبة، وقد أحبّت اسمها الجديد، فلم تكُن تكترث حتى لوجوده. ومثل أغلب البشر، فزِعت نجيبة من عودة الذين دفنتهم في ماضيها.

كان ماطور الشيخ طٰه حصينًا، وكان أيضًا هدفًا لهجوم الماركسيّين، لكنّه بقي يعمل. بقيت آلتان تعملان في وصاب إبّان

الحرب، وقد انطفأ كلّ شيء:

ماطور أبو علي، وحرّارة الغشمي.

حدث أوّل هجوم على ماطور الشيخ طٰه، بعد يوم من تفجير ماطور لأحد أعضاء الجبهة القوميّة في قرية الدّن، في وصاب العالي. جاء الردّ من قبل الماركسيّين: ماطور بماطور. اتُّخذ القرار على أعلى مستوى ميدانيّ.

«للأسف، سنضطرّ لإعادة وصاب إلى زمن ما قبل المواطير»، قالَ أحمد الوجرة للمجموعة التي سيقودها نجيب الأدرد.

لكن وصاب لم تعد قطّ إلى زمن ما قبل المواطير، وبقيت غرفة نجيبة مضاءة. وعندما اقتربت المواجهات من قرية الدكّة، أمر الشيخ أبو علي بتكسير لمبات الدار، واستثنى غرفة ذكرى وغرفة صغيرة تطلّ على جهة الغرب وطريق السيول. وكان حدس أبو علي في محلّه، فقد أُصيبت جدران الدار برصاص كثير على مدى أيّام، وبقيت جدران غرفة ذكرى. ولم تعلم هي بذلك، ولم يخبرها أحد أنّ المهاجمين يحرصون على استثناء الجهة من الدار حيث غرفتها. لن يكون أمرًا جيّدًا أن تعلم ذكرى، أو نجيبة، أنّ جدار غرفتها لم يصب بالرصاص. وبدلاً عن ذلك، أخبرها أبو علي أنّ غرفتها كان مستهدفة على نحو خاصّ، وكانت تقع في الدور الثالث وتطلّ على جهة الشرق وذات شبّاكين حجريّين صغيرين.

وفي ليل الرابع والعشرين من فبراير ١٩٧٩، وكان يوافق الثامن والعشرين من رجب، شنّ الماركسيُّون هجومًا واسعًا وأسقطوا عشرات القُرى. تزامن هجوم الجبهة القوميّة مع الحرب التي اشتعلت منذ ظهيرة ذلك اليوم بين الشطرين اليمنيّين.

وعندما حلّ الليل، بعد حربٍ في كلّ مكان، كان كلّ اليمنيّين منهكين، بما في ذلك دخان القُرى.

وفي حذران البعيدة، حيث وُلد الأعرج، كان نجل الشيخ يسأل زوجته عن الحصاد، وهي تتشاغل عنه بغسل قدميّ ابنها في طستٍ دافئ.

وفي يفرُس، شعر حارس المسجد بالبرد الشديد والوجع في ركبتيه، وتذكَّر جَمَله الثالث الذي أكلته النسور قبل أسبوع.

وفي قرية الحاجّ، استلقى الشيخ الشامي على فراشه وسمع صوتًا بعيدًا يشبه انهيار جدار، فتحوّل إلى الجانب الآخر.

وفي وادي المُلك، وقف إبراهين ينصح رجلاً بغلي نوع نادرٍ من الأعشاب. فعاد الرجل إلى بيته وطلب من زوجته أن تغلي خصيتَي جَدْيٍ صغير وتسقي ابنها.

وفي زبيد، صاحت امرأة «مااااات»، فنهرها رجل «إكرام الميت دفنه».

وفي قرية الدكّة، غمغم صُهَيْب «الله يرحمه»، فقال الرجل الذي كان يقف إلى يساره بعد تردّد: «الله يرحمه».

وبعد ثمانية أيّام، أوقفت جامعة الدول العربيّة الحرب بين الشطرين، وبقيت الحرب في وصاب.

توافد المقاتلون من أماكن عديدة إلى وصاب، وتوزّعوا على الجبهتين. سقط قتلى كثيرون، وبقيت أسرار الجرحى طيّ الكتمان. ومع الأيّام، شعر منصور بالسأم والعدميّة، فقد كان يُطلق الرصاص في الليل ولا يعرف ما إذا كان قد أنجز شيئًا. وعاودته من جديد أحلام

الأوبة إلى حذران. لقد انتصف العمر، قال لنفسه، وليس لي قرية ولا امرأة. وفي المنطقة الممتدّة من وصاب حتى تعِز، وقبل أن يدخل المرء حذران، كانت الجبهة القوميّة تتبادل الأماكن مع الجبهة الإسلاميّة، ولم يعُد الطريق آمنًا. وشيئًا فشيئًا، اتّشحت كلّ الطرق بالسواد.

بقيت الأمور على ذلك النحو حتى مطلع العام ١٩٨٠، ومنصور كان قد أصبح قائدًا لمجموعة من المقاتلين المتخصِّصة في الألغام، ولم يكن الحصول على الألغام أمرًا صعبًا، بعد التحالف الذي نسجه المقاتلون الإسلاميُّون مع الحكومة في صنعاء. بقي طريق السيل آمنًا، وخاليًا من الألغام.

كانت ذكرى قد تجاوزت الثلاثين من عُمرِها. وعندما دخل بها الشيخ لأوّل مرّة، وكان ذلك قبل حوالى خمسة أعوام، وكان اسمها نجيبة، صرخت فأيقظت الحرَس. وضع الشيخ يده في عنقها، فكادت تجود بروحها. وجعل يدفع عضوه بقوّة وكان ينثني. وعندما وقف أمامها ورأته لهجت بالمعوّذتين، فركلها وهو يقول «لا يجوز، لسنا على طهارة». توقّفت نجيبة عن القراءة وقالت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فألقى ببصره بين فخذيها. ولم تمض سوى دقائق حتى كان كلّ شيء على ما يُرام، وكان طريق الشيخ سالكًا. وقف الشيخ أبو علي لاهثًا وقد داهمه شعور غزير بالفخر، بعد أن كان على حافّة الفضيحة. واعترف لها في رمضان الذي جاء بعد زواجهما أنّه رأى في تلك الليلة فارسًا ملثَّمًا يصعد من بين فخذيها إلى السماء، وأنّه تسبَّب في انحناء قضيبه وسدّ الطريق. هكذا قال: الطريق. فقالت له نجيبة إنّه الشيطان يا شيخ، وقال أجل. وبقي ذلك الموقف في رأس طٰه أبو علي، ونادرًا ما نسيه.

ومنذ طفولتها، لا تتذكّر نجيبة أنّ لها ابن عمّ في أفريقيا، وسمعت اسم نجيب في طفولتها مرّات قليلة، ثم نسيته. وعندما قال لها الشيخ أبو علي، في يوم من الأيّام، إنّ ابن عمّها يداهم القرية والقُرى المجاورة انتقامًا لها، بكت، وحلفتْ أنّها لا تعرف عنه شيئًا.. ولم تعلم حتى بوجوده.

قال لها الشيخ إنّه يحارب مثل شيطان، وإنّ كثيرين صوّبوا تجاهه ولم يصب بأذى قطّ، فقالت «أقدار». قام الشيخ وتجوّل في الغرفة وهو يحرِّك مسبحة من فئة المائة بين أصابعه، ثم عاد واقترب منها:

«تتذكّرين ليلة الدخلة وما حدث بيننا؟»

فخفضت بصرها وشعرت باختناق.

قال الشيخ:

«لم يأتِ اسمُ جدّك الوثني من فراغ، فقد كان غريب الأطوار، وكانت أفعاله تثير الريبة والهلع.. وهذه أمور تنتقل في الأحفاد».

نهضت ذكرى غاضبة وموجوعة، وغادرت الغرفة، فرأى الشيخ أبو طه استدارة مؤخّرتها فهزمه ذلك المنظر، وكأنّه رآها لأوّل مرّة. وكانت نجيبة عندما تقوم غاضبة يضرب ردفاها أحدهما الآخر ويصدران صوتًا يشبه هسيس السنابل. كانت ذكرى تعلم تمامًا عبقريّة جسدِها، وبقي هسيس السنابل ذلك ردحًا من الزمن، وكان يشفع لها على الدوام.

لقد تزوّج أبو علي نساء كثيرات، وقد تجاوز الآن الستِّين من عمرِه. بيد أنّ مؤخّرة نجيبة كانت شأنًا استثنائيًّا، وفي أحيان كثيرة، كان يعرّيها ويمدِّدها على بطنها ثم يفرك ردفيها بعطر العود، ويسبّح باليد الأخرى متسائلاً «من أين يأتي الهسيس؟» ولا ينبس بكلمة.

وكان ذلك المنظر، بالنسبة للشيخ المتديّن، لا يقل جلالاً عن صوت الرعد ورياح الربيع.

بقي نجيب الأدرد تائهًا، ومع الأيّام، تضاءلت صورة نجيبة في خياله، وسكنته الحرب بكلّ واقعيّتها وقسوتها. ومضى يقاتل كأنّه قدم للتوّ من أفريقيا، ولم يعرف منصور قبلاً. وخاض المواجهات كأنّه رجل لم تكن له ابنة عمّ قطّ.

أمّا رفيقه الأعرج، فقد سمع أصوات غالبيّة الألغام التي زرعها، وكانت تنفجر بين منتصف الليل والفجر، ممّا جعل منصور لا يفكّر كثيرًا بضحاياه.

نامت وصاب وأفاقت على صراع ليس جزءًا من ماضيها. وباستثناء الخوف والفزع، فلم يكن أهل وصاب يعرفون شيئًا عمّا يقوله الطرفان. لم توفّر الحربُ أحدًا، ولا حتى منصور الأعرج. صار منصور يصلّي، حتى إنّه أصبح يصلّي الوِتْر، فهو مجاهد إسلامي. وعلى المجاهد أن يكون راهبًا في الليل فارسًا في النهار، كما سمع عشرات المرّات. نجيب الأدرد، على الضفّة الأخرى، صار ماركسيًّا، والماركسيّ عليه أن يقاتل لكي يقضي على الغيلان كلّها، كما تقول النظريّة.

مع حلول سبتمبر من العام ١٩٨٠، كانت الجبهة الممتدّة بين الشطرين قد هدأت، ولم يعُد ثمّة من جديد. وبقي المسلّحون في الجبال. ومع الأيّام، لم يعودوا يدرون ما الذي يتوجّب عليهم فعله، وبقيت الحربُ بين الطرفين مجرّد محاولة مستميتة لطرد السأم. وعندما بقي القليل منهم في الجبال، كانوا يشعرون بالاختناق والكمد حين يسقط خصومهم قتلى.

وفي واحدة من الليالي، أرسل الماركسيُّون إلى الإسلاميّين عبده الأهبل، وكان محاربًا لا يصيب شيئًا. وما إن التقى بأوّل كمين من الإسلاميين حتى رفع يديه قائلاً: «بُه عندكم رصاص؟»، فأعطوه أكثر من خمسين رصاصة وعاد إلى رفاقه. وهو ينفش الرصاص أمام الرفاق الماركسيّين، قال عبده الأهبل لاهثًا:

«قالوا لي لو كمَل الرصاص عليكم خبرونا».

«وأنت أيش قلت لهم؟» سأله رجل لم يسرِّح شعره منذ الطوفان.

فقال عبده الأهبل وقد هدأت روحه:

«قلت لهم باكر ستصلنا ذخيرة من إب، وسنضع سهمكم على جنب».

٢٢

ومن وقت لآخر عادت المواجهات، وقُتل الرجل الذي قال إنّه سمع زغرودة صباح، ابنة الشيخ. ووُجدت جثّة عبده الأهبل بالقرب من طريق السيل. قيل إنّه جامع كلبةً نائمة بالقرب من المنزل الذي يلتقي فيه أعضاء الجبهة. قامت الكلبة وجرّته خلفها وخرج المزيد من الكلاب وتبعوا الرجل والكلبة. لم يستطع أن يخرج عضوه من فرجها. ولم تكن وفاة عبده الأهبل سوى مسألة حظّ بائس.

ومرّت فترة قصيرة كان فيها أحمد الوجرة مهيمنًا على كلّ وصاب، وشعر نجيب الأدرد بالفخر. وكأيّ حرب محلِّيَّة، كانت تلك الواقعيّة الموْجيّة قابلة للتغيير. فقد استطاع المسلّحون الإسلاميُّون الوافدون من خارج وصاب، الذين ساقهم النظام من صنعاء أو الإسلاميُّون من تعز، تهديد سلطات أحمد الوجرة.

وقُتِل السليك في واحدة من ليالي يوليو من العام ١٩٨٠، وبقي اسمه الحقيقي لغزًا. لم يكن ذلك بالخبر الهيّن على الجبهة. وبعد

مرور أيّام، عاد الهدوء مرّة أخرى إلى جبهات المواجهة، وامتثل أحمد الوجرة لأمر تنظيميّ عالي المستوى، وسافر عبر طريق عويص حتى بلغ جبل شخب عمّار، في إب. التقى الرفاق هُناك وتدارسوا عشرات الخرائط لعدّة أيّام. اصطحب الوجرة ثلاثة رفاق، كان أحدهم نجيب الأدرد. وفي أوّل ليلة على ذلك الجبل العالي، دخّن الرجال السجائر وخزّنوا القات وسخروا من العالم، وقال نجيب الأدرد بنبرة حسودة ومازحة:

«هذا عشّ نسر، من هذا المكان سأتحكّم حتى بأفريقيا».

فردّ عليه رجلٌ «لو جرَّبت برد شخب عمّار ليلة واحدة، ستتمنّى لو استطعت السيطرة على نفسك وحسب».

وقال آخر، وهو يضع أمامه المتفل:

«برد شخب عمّار وجوعه. جوع شخب عمّار أسوأ».

خاضوا في الجدّ متأخّرين تلك الليلة. في البدء، قصّ عليهم نجيب الأدرد ما حدث له أثناء أوبته من زنجبار، وكيف تاهت السفينة في البحر، وضربتها الريح حتى رست على مقربة من النخيل. وقال لهم إنّه فرّ من وادي المُلك بعد أشهر خوفًا من زوج وهيبة. لم يسأله أحدٌ عن وهيبة، فقال:

«كانت وهيبة لوحدها بحرًا».

فسال لعاب رجلين أو ثلاثة. وقال له سعيد الشبَح، وكان رجلاً خفيف الوزن صغير العينين:

«لا داعي للحديث عن النساء على قمّة شخب عمّار».

ووضع يده بين فخذيه محاولاً دسّ شيء مستقيم تحت حزامه. وقال رجل أو اثنان «فعلاً». سمع الرجال جزءًا من قصّة منصور

الأعرج، فهتف أحمد الوجرة بنشوة:

«يا لها من قصّة، كأنّ الرجل يحاول أن يرسم بقدمه العرجاء دائرة حول اليمن القديم».

وفهم نجيب جزءًا من كلامه وتخيّل الجزء الآخر. لكنّ الوجرة رفض الفكرة التي تقول إنّ منصورًا يقاتل إلى جوار الجبهة الإسلاميّة أو النظام الحاكم. قال إنّ قصّة الرجل تقول إنّه أقرب إلى شخصيّة شاهد عيان، وهذه الشخصيّة يصعب استقطابها. تناولوا شخصيّة الأعرج من أكثر من جانب، وقال سعيد الشبح، وكان رجلاً يقرأ ويحارب بحسب وصف رفاقه:

«هذه شخصيّة روائيّة أكثر منها واقعيّة. لا أستبعد أنّ نجيب الأدرد ابتكرها. وعلى كلّ حال، فهو يشبه جوزيف التائه الذي لكز المسيح قائلاً «امض فيمَ التلكّؤ»، فقال له المسيح «سأمضي ولكنَّك ستدور في العالم حتى عودتي». قدر منصور الأعرج المُضيّ والدوران، صدّقوني».

«فكرة عبقريّة» قال أحمد الوجرة، «أظنّ أنّ الباهوت يلعب في هذه القصّة دور المسيح» أضاف. «ولكن، هل قام منصور الأعرج بلكز الباهوت فغضب عليه؟» تساءل الوجرة، كأنّه يناقش شخصيّة روائيّة بالفعل.

وضحك رجل كثيف الشعر، وكان يضع سيجارة بين أصبعيه واسمه منصور. قال:

«لن يصدّق الرجعيُّون أنّنا نتحدّث عن المسيح والباهوت فوق جبل شخب عمّار».

كُلّف نجيب بمهمّة خاصّة تلك الليلة: فكّ أسر منصور الأعرج،

وإطلاق سراحه. قال نجيب إنّه يثق كثيرًا برفيقه، وإنّ الأخير سينحاز للجبهة ضدّ الغيلان، فأشار الوجرة بيساره، وكان قد بدأ يقلّب أوراقًا أمامه:

«خلّصه، واتركه يمضي في طريقه».

وسمع نجيب من الطرف الآخر للغرفة صوت سعيد الشبح:

«إن كانت بالفعل شخصيّة حقيقيّة فهي لا تنتمي لأحد، ومن الأفضل أن تتركه يمضي».

في أغسطس ذاك، كانت المواجهات قد عادت من جديد. وفي شرعب البعيدة، في تعز، ألقى الماركسيُّون برجلين في منحدر. وفي العُدين القريبة، في إب، دحرج الإسلاميُّون صخورًا ضخمة على قرية يتواجد بها مقاتلون من الجبهة.

وعندما عاد الوجرة إلى وصاب، كان الإسلاميّون قد استعادوا عددًا من القُرى. أجرى الوجرة اتّصالاته المعتادة مع الماركسيين في الجنوب، ونبا إلى علمه أنّ المجال السياسيّ يتغيّر لمصلحة تقارب الشطرين، وأحسّت قيادات الجبهة الماركسيّة بأنّها تغرق شيئًا فشيئًا.

وبعد شهور قليلة، في يناير ١٩٨١، ذهب منصور الأعرج لمشاهدة حرّارة الغشمي في وصاب العالي، بالقرب من ذمار. اصطحب رجُلين، وقال له الشيخ طٰه:

«مُر على الشيخ سُميع وأبلغه سلامي، وقل له إنّ اجتماع مشائخ وصاب سيكون عندي يوم الجمعة، الغداء والصلاة عندنا».

فهزّ منصور الأعرج رأسه، وقال «إن شاء الله».

كان الطريق قد صار آمنًا، واختفت الجبهة القوميّة من عدد كبير من القُرى.

وعندما رأى منصور الأعرج حرّارة الغشمي لأوّل مرّة، ضربته ريح قويّة في ساقيه، ونهض قلبه، وذهب يستنشق الهواء كأنّه مصاب بالزكام، وغمرته رائحة من الماضي. كانت الحرّارة تعمل وتصدر صوتًا رهيبًا، وإلى الخلف منها وحتى الجبال البعيدة، أبصر منصور طريقًا عريضًا، وشعَر بحكّة في قدميه وارتجفت شفتاه وبدا له ذلك الطريق شبيهًا بالنهر، أو السيل.

بالقرب من الحرّارة، كما في سائر الأيّام، كان الناس يتحلّقون، وكانت مخلوقًا غريبًا. وسمع منصور رجلاً يقول «هذه واحدة من رسل الله، بعثها لتخرجنا من حبسنا». ولمح أكثر من رجلٍ أنعشته تلك الكلمات. وعندما اختفى الظلّ وصارت الشمس عموديّة ونزلت على الحرّارة من الأعلى مباشرة، قام رجل من المتواجدين على التلّة المقابلة وأذّن لصلاة الظهر، ولم يكن بالقرب من المكان الكثير من المنازل. تيمّم بعض الرجال بالتراب وتهامس بعضهم بأنّهم على طهارة، وصلّوا. أمّا قائد الحرّارة فغادرها، وعلى مسافة قريبة جلس للتبوّل، وكان يمكن رؤيته من مكان الصلاة. من بين الناس المتواجدين في ذلك المكان أبناء قبائل حضروا من قبل عشرات المرّات ولم يروا سائق الحرّارة يصلّي قبلاً. ولم يبد لهم ذلك أمرًا ذا شأن.

أمّا منصور، فهبط من التلّة المرتفعة تاركًا لقدميه العنان حتى صار بالقرب من الحرّارة. سار في اتّجاهها، ومرّ بمحاذاتها وشمّ رائحة زيتها لأوّل مرّة، ولم يدرِ بماذا ذكّرته تلك الرائحة.

سلك طريق الحرّارة وهو يحمل بندقيّته معطيًا ظهره الأزرق إلى الناس على التلّة. وتلك أخذت تنأى شيئًا فشيئًا، وأخذت منصورَ اللفّات والدروب.

وعندما اقترب من مدينة ذمار، عصر ذلك اليوم، سأل رجلاً عن عدن، فقال له إنّها بعيدة جدًّا. وعندما سأله منصور عن الجهة، أشار ناحية الجنوب.

وحملت القدم العرجاء منصور ناحية الجنوب.

صعد منحدرات وجبالاً وتاه. وكان يسأل الناس في طريقه وهم يقولون له إنّ «عدن» بعيدة جدًّا.

وعندما حلّ الليل، وكان يعشو، قال له رجل في المنطقة الواقعة بين إب وذمار «عدن دولة أخرى ودخولها ليس يسيرًا». وأضاف الرجل «سيوقفك حرس الحدود، وقد يقتلونك».

ماعت روح منصور الأعرج عندما سمع كلمة «يقتلونك»، فقال له الرجل، وكان الغسق قد اكتمل:

«كيف تريد أن تدخل عدن بالبندقيّة؟»

وعندما صار الليل أكثر حلكة، وجد منصور الأعرج نفسه يمشي في طريق إسفلتيّة وهو يحدِّث نفسه عن عدَن التي في القرآن. فقد قال له رجل في وادي المُلك «عدن قرية في القرآن وهي قادرة على إغراق كلّ السفن».

وعندما صار الطريق ممتدًّا ومنبسطًا بعض الشيء، التفت منصور إلى الخلف منه، فرأى فراغًا لا يقلّ وحشة وحلكة عن الفراغ الذي أمامه. تشبّعت روح الأعرج بطمأنينة سامية. وفي مكان ما، بين ذمار وإب، أبصر منصور نورًا باهتًا، وعندما اقترب منه، وكان يقع بالقرب من الطريق الإسفلتيّة، وجده دكانًا صغيرًا.

وقف منصور أمام الدكّان وشرب ماء من جرّة موضوعة إلى جوار

الباب. شرب من فمها مباشَرةً، وكان مغمض العينين وسمع خرير الماء يتدفّق إلى فمِه وحلقه، فانتعشت كلّ مفاصل جسده.

سأله الرجل من داخل الدكّان «إلى أين أنت ذاهب؟» فقال منصور بثقة «إلى عدن».

فقال له الرجل:

«لا يمكن للمرء أن يدخل عدن ببندقيّة».

فقال منصور:

«أدري».

ثم خلع بندقيّته وعلّقها على باب الدكّان، وفتح البائع عينيه مندهشًا. صمت الرجلان وتأمّلا بعضهما بعضًا دون حراك. كسر البائع حاجز الصمت، وقال وهو يحني جسده ويلتقط شيئًا:

«خذ هذا الرغيف، وهذا الرغيف، يحتاج المسافر إلى الخبز. عدن لا تزال بعيدة، بعيدة جدًّا».

فشكره منصور بحركة من رأسه، وبدا فاقدًا للكلام.

وعندما غاب منصور في الظلام، سالكًا طريقه، ناداه الرجل بصوت جهوري:

«عدن أرض حارّة، هل تسمعني؟ عدن حارّة. اخلع كُوتَك قبل أن تدخل عدن».

وسمعه منصور.

تمّت

٣١ مارس ٢٠١٥

يطوف منصور، بقدمه العرجاء، وبمعيّة أمّه الشمس، في أرجاء اليمن، يصاحب «الباهوت» - الولي الذي هو، حسب الرواية، رسولُ غرامٍ بالنسبة إلى النساء، وخزينةُ أسرارٍ بالنسبة إلى الرجال - ويستمع إلى قصص الناس وحكاياتهم ومآسيهم وإيماناتهم وحروبهم. وينتهي به المطاف إلى عدن، ليكتشف أنّه لا يمكنه دخول هذه المدينة حاملًا سلاحَه.

كم من منصورٍ تحتاجه اليمنُ اليوم ليعود يمنًا سعيدًا؟

تقدّم لنا "تغريبة منصور الأعرج"، من خلال أجوائها الروحانيّة الصوفيّة المتشابكة مع الفلكلور، تاريخًا وتأريخًا لليمن كما يعيشه ويرويه أبناءُ شعبها.

مروان الغفوري: طبيب أمراض قلب، يمنيّ الجنسيّة، يُقيم ويعمل في ألمانيا. صدرتْ له عن دار الآداب رواية «جدائل صعدة».

تصميم الغلاف نجاح طاهر



دار الآداب
هاتف: ٠١/٨٦١٦٣٣
٠١/٧٩٥١٣٥
ص ب ١٢٣-٤١٢٣ بيروت

ISBN: 978-9953-89-495-9
9 789953 894959